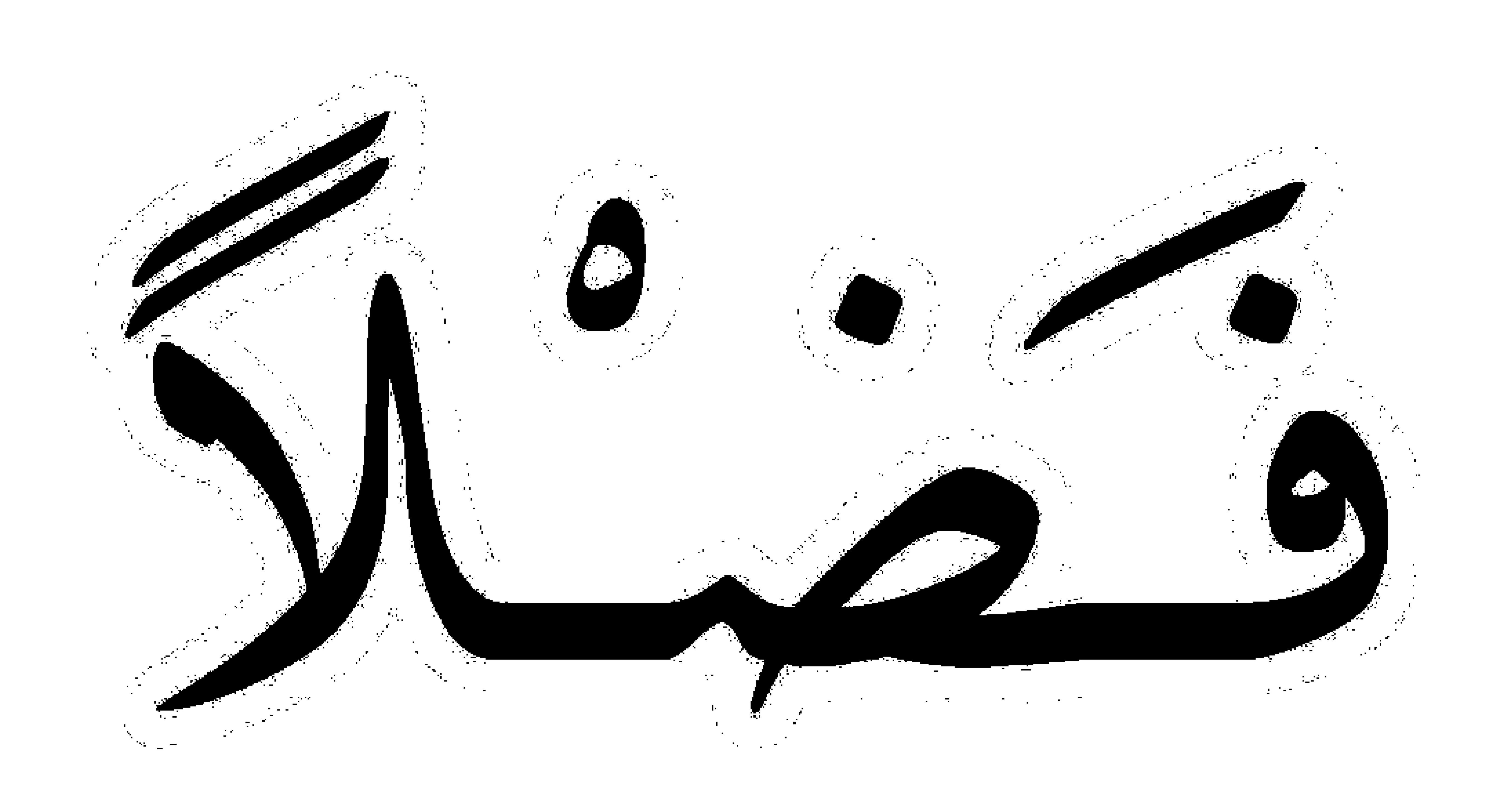

حبيبتي
بكماء
مُحَمَّد السَالِم
رواية
صفحة كُتب
facebook.com/the.boooks
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
الطبعة الثانية


فضلاً

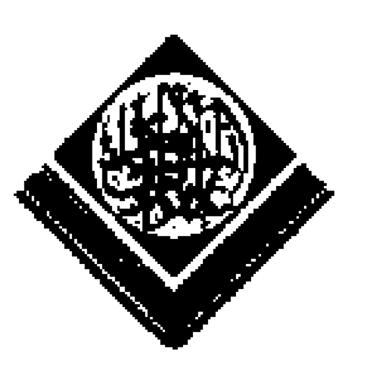

صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!



ISBN 978-614-02-0714-1

الطبعة الثانية

1434هـ - 2013 م



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إهداء

إلى صديقٍ وفيٍّ

لم يتخلّ عني يومًا..

إلى الحزن..



There are a lot of snobs out there who disregard these books“ (romance novels), but they fulfill a need. I am happy and fulfilled in what I am doing and readers love them. And why not? They are (harmless and they are fun.”(1

.Sara Craven 1

تحتفل روايات الحب - في الغالبِ - بهزيمة الرجل أمام الأنثى. فلا شيء في الحبِ أقوى من تسلُطِ الأنثى. وحدها هي من تستطيعُ تمزيق الرجلِ وبعثرتهِ ثم تجمعهُ وتشكّلهُ مثلما تريد، أما هو فعليه أن يحبها فقط. تلك المخلوقةُ الناعمةُ التي تدعى بالأنثى تستطيعُ بابتسامةٍ فقط أن تجعل أذكى وأقوى رجل على الأرض يركع على ركبتيهِ أمامها كقط أليف!

(1)

ها أنا أكتُب من جديد. ها أنا أسطّرُ لكِ أنينًا من حنين. ها أنا أضعُكِ نقطةً على الحرفِ وأكتبُكِ كلمةً على السطرِ. ها أنا العاشق البسيط أدوّن لكِ كلمات عشقٍ عظيم وأرسمُ لكِ فضاءً في مجرّةِ الأدب بدونِ أدبي، وأفضحُ سري بإرادتي، وأحفرُ قبرًا يتسعُ لي في مقبرة كتاباتي وأوراقي.

معاركُ كثيرةُ خُضْتُها من أجلكِ، مُتحدّيًا قلمي ودفتري، فالكتابةُ فيك يا مُهلكتي لا تنصِفُها أبجديةُ الحروفِ، وأحتاجُ للغةٍ جديدةٍ فريدةٍ مبتكرة لِتَكْتُبَ فيها خِصالُكِ ولتُرتّلُ بها صفاتٌ ملائكيةٌ طاهرةٌ وجدتُها فيكِ ولكني لا أعرفُ كيف للكتابةِ طريقٌ أخر غير طريقِ الجنونِ، فلكِ اعتذاري يا حبيبتي حين تأبى الكتابةُ من إتمامُكِ ولا تقوى الكلماتُ على سردكِ.

أكتبُ وأمحو، وفي أغلبِ الأوقاتِ أكتُب وأبكي على حُبٍ لكِ في قلبي وعشقٍ لكِ فيَّ لا زلتُ أشعرُ بهِ هُنا في فؤادي، وعلى روحٍ تحتضرُ دونك

مهما اجتمعت حولها أسبابُ السعادةِ التي تغبِطُها كلُ الأرواحِ الأخرى.

عشراتُ الدفاترِ مُزّقت، ومئاتُ الكلماتِ شُطِبت، كي أجعل منكِ أمير
الحكايا وسيدة قصصِ الحبِ والرواية. فأنتِ أنثى تتوهُ بكِ البداي
وتتشتّتُ بذكراكِ تفاصيلُ الحكاية. أنتِ يا أُنثاي خُلقتِ من طينِ كجم
الخلقِ، ولم تُرسلي من السماءِ بسلسالٍ يميّزُكِ عن البشرِ، ولكن هُنال
شيئاً أخر يُميِّزُكِ عن جميعِ نساءِ الكونِ، شيئاً لم يرهُ أُنسُ قبلي، وا
يفقه فلسفَتهُ ماردٌ كماردَ عشقي. أنتِ يا أنثى الإثارة، يا من تميا
لحُسنِكِ ألفُ رقبةٍ وقامة، ويا من تتقِنُ فنون الغواية بدونِ قصدٍ أو إرادة
من يقوى على حُبكِ ومن يمتلِكُ الشجاعة لمقاومةِ ثورة خصركِ.. تقتحم
الصفوفَ بردفٍ يبعثُ الذهولَ في أعينِ الإناثِ قبل الرجالِ، وبلثامٍ يس
تضاريس وجهٍ يرسِلُ للسماءِ مئاتَ الأمنياتِ من قلوبِ نساءٍ ورجالٍ، ف
يحسُدْنَكِ على هذا القمرِ المرسومِ في محيطِ محياكِ، وهم يغبطون ذال
الرجلُ الذي يتمتعُ في الليلِ بتقبيلِ محياكِ.

أنتِ أنثى غيرُ عادية، تضربين القلوب بقامتُكِ القصيرة، وتعيدير
ترتيب الكراسي على الطاولاتِ المستديرة لتتوجه أنظارُ الجالسين لل
ولتبهرين بشرقيتكِ رجالَ الغربِ والشرقِ، وتتحدين بجمالِ عينيكِ، جما
نساءِ الأندلُسِ وجنوبِ الأرضِ.

وما حديثي يا سيدتي يفي وصفَ عينيكِ، فذلك السوادُ الطاغي على
بؤرةِ عينكِ أشبهُ بالثقبِ الأسودِ في فضاءِ المجرة، يجذبُ كل من حو

ويرميهِ في شقٍّ آخر للكونِ، بعيدًا عن كلِ افتراضياتِ العلمِ، حيثُ ا
يوجدُ.. إلّا أنتِ.

كُنتِ ولازلتِ سيدتي، سيدتي اللطيفةُ الجميلةُ التي تأسرُ قلبه
بخجلِها الكبير وببراءةِ تعابيرِ وجهِها حين تعلو وتيرة الغزلِ فيها
تضيئين نجومًا في سمائي بابتسامةٍ يطيبُ بها السهرُ والسهوُ عن
جميعِ الخلقِ، وتجعلين الحزن يلعنُكِ والهمّ يشتُمُكِ حين تقتربين أكث
مني وينجلي كل حزني وهمي.

تجيدين رسم الحب في عينيَّ حين أنظرُ لكِ وأرى كم هما جميلتان
عيناك.. عيناك اللتان كانتا كل أسباب حبي وكانتا الهاوية التي وقعتُ
فيها في فخِ الغرامِ. كُنتِ نبضة الحب الأولى في قلبي، ابتسامةُ العشق
الأولى على ثغري، والسيدةُ الأولى التي حطّمت أبواب قلاع حبي
الحصينة، ولازِلتُ لكِ ذلك العاشقُ المحروم منكِ ومن قُربكِ.. من أبس
حقوقهِ بالعيشِ معكِ.

أربعُ سنينٍ مرت، أربعُ سنينٍ عِشتُها في ألمٍ وحزنٍ وشقاء، أر
سنينٍ يا حبيبتي منذُ أن رحلتِ ومنذُ أن عشعشت عَناكِيبُ الحزُنِ ف
صدري. كيف لكِ يا طيّبةَ القلبِ أن ترحلي هكذا، دون وداعٍ على أرصف
القطاراتِ الراحلةِ لأراضي الغياب، دون تذاكرِ عودةٍ لوطنٍ يحتاجُ إيمان
ووفائَكِ لحدودهِ التي سُلِبتَ منها غيومُ السعادةِ وأمطارُ الفرحِ وشم
الحبِ حين رحلتِ، وأظلمتَ سماؤه بالسُحبِ السوداء التي تبرُقُ بالخو

والهلعِ في كلِ لحظةٍ ينبضُ بها قلبهُ بحبٍ جديدٍ، فهو من بعدكِ
يخافُ كل نبضاتِ الحبِ، يخافُ التورط بحكايةٍ أخرى لا تمحي م
وجدانهِ حكايتكِ.. فأنتِ قصةٌ خياليةٌ لا تتكرر أبدًا ولن تُرى حتى ف
أجملِ الأحلامِ!

رحلتِ يا سيدتي دون أن أسمع صوت خُطاكِ نحو بابِ الغيابِ، دو
أن أسمع صوت بابِ الحبِ يُغلق، دون أن أرى حقائبًا تجمعُ وترسل
ودون أن تضعي لي رسالةً على طاولةِ المطبخ! ونسيتِ في ليلةِ الرحيل
أن تضعي لي مفتاحًا أخر.. لبابِ العودةِ الكبرى!

أشعرُ بأنني في غيبوبةٍ لا يفكّرُ عقلي فيها إلا بكِ، لا أريدُ الإفاق
منها، ولا أسعى للاستيقاظِ منها! فما الحياةُ تعني لي شيئًا الآن، وما
الحياةُ نعمة إن لم أكُن في أحضانكِ الآن!

الغيبوبةُ يا حبيبتي نعمةٌ من الله حين يهبُها لمن تُسلبُ منهُ سعادت
تحتَ مسمّى ما يدعى عاداتُ مجتمعٍ وتقاليده! حين يكون الواقعُ مخيّب
لأمالهِ وحين تكونُ الأحلامُ أجمل وأرقُ على قلبهِ الحزين!

أشعرُ بأنني غريبٌ على هذهِ الأرض رغم أنني تربيتُ على ترابِها
أشعرُ أني عابرُ سبيلٍ مرَّ على هذهِ الواحة، رغم أنني تسلقتُ كثير
نخلها.. أشعرُ بأنني لا أعرفُ من أنا حين أكتبُ لكِ فأتوهُ في أساليب
الكتابةِ وتراوغُني الحروفُ والكلمات.

لطالما كُنتِ السبب الوحيد للكتابة، وحدكِ من علّمتني كيف أُروِّ

كلماتي، حينما كانت الكتابةُ طريقًا جميلًا نتّخِذُهُ لنطلق ما لم تقدرُ عل
بوحهِ.. ألسِنتُنا!

أمشي وحيدًا على هذا الطريق الطويلِ الحزين، وأكادُ أموت حزينًا من همٍ توحّدَ بيّ! رحلتِ أنتِ ولن تنفعُني كل محاولاتي البائسة في استردادِ حقي بكِ، رحلتِ ولم أجد خيطًا يعيدُني لطريقكِ.. رحلتِ دون أن تقولي «إلى اللقاء»، أو حتى «الوداع».. ألا تعرفين أني رجلٌ شرقي يموتُ قهرًا حين تسلبُ منهُ أحلامهُ ويثورُ غضبًا حين يحالُ بينهُ وب رغباتهِ! ألا تعرفين أني رجلٌ عربي! إن عشقَ.. أدمن! وإن أدمن.. تورّط وإن تورّط.. تمرّد! وإن تمرّد.. تمرّد!

لا أيأس عن طموحي، ما دام الهواء ينفخُ رئتيّ.

قطعنا وعودًا كثيرة معًا وأطلقنا في السماءِ أمنياتٍ كثيرةٍ وعميق سويًا، ورتّلنا في آخرِ الليلِ دُعاءً طاهرًا عذبًا متبادلًا..

ولكن كل شيءٍ تغيّر الآن ... وعودُنا كانتَ غباءً!

وأمنياتنُا راحت هدرًا وجفاءً...

ولكني لا زِلتُ أدعو لكِ ربي بأن يُضْحِكَ شفتيكِ دائمًا وأن يكون م في أي مكانٍ كُنتِ وفي أي مكانٍ تختبئين فيهِ.. عني!

أتساءلُ أحيانًا.. أكُنتِ تُحبيني أكثرَ، أم أحببتُكِ أنا أكثرُ؟..

أتساءل وأنا لا أبحثُ عن جوابٍ.. فلو أنكِ أحببتني كما أحببتُكِ، ل كان سؤالي بهذهِ الصيغة، صيغة الماضي الذي لا أزالُ أعيشُ عل

ذكراه ولا أزالُ أتنفسُ عبيرهُ رغم قسوةِ حاضري وضياعِ سعاد
مستقبلي دونكِ.

أُناقِضُ نفسي حينما أكتبُ لكِ، كتناقضِ العشقِ والكراهيةِ، ولكنني
أكرهُكِ أنتِ بل أكرهُ غيابكِ ورحيلكِ عن عشقي.. حين ابتعدتِ دون سا
إنذار ودون أن تأخذي مني كل تذكارٍ يفتحُ للحنين أبوابًا ترهِقني دون
وتؤلمُ قلبي الذي يتأملُ رجوعكِ كشعاعٍ لشمسِ نهارِ العيدِ أو كقائ
لعودةِ الطيورِ المهاجرةِ من وطنِ الشتاء أو حتى كمطرٍ يهطلُ فو
الأبواب.

ليتكِ مُتِّ! ليتكِ في قبرٍ وُضِعْتِ، لصارت الذكرى أهون على عقلي
ولاطمئننتُ بأنكِ رحلتي لربٍ أكرم مني ويحبُّكِ أكثر بكثيرٍ مني.. لها
غيابُكِ على قلبي وقُلتُ لهُ بأنكِ هناك في سابعِ سماءٍ وفي فردوسٍ أط
من هذهِ الأرض الفانية تنتظرين قدومي وتعدّين منزلنا وتحذّرين
الحواري بأن لا يقربن مني، لأنكِ ستكونين حوريتي في هذا الفردوس
العظيمِ حين لم تستطيعي أن تكوني أمًا لطفلتي وزوجةً هي أولى
زوجاتي في الدنيا وعينيها ثانيتهنّ وشفتاها الزوجة الثالثة التي
أتزوجُها غصبًا عنكِ، ونهداها رابِعُ زوجاتي وألذُّهنّ جميعًا! وأنكِ
ستفعلين بيّ كل ما لم تقدري على فعلهِ خجلًا وخوفًا من ربكِ الذ
أحسن خُلُقكِ.. لكنّ الموتَ أهونُ من كلِ خيالٍ يرسمكِ أمامي في حض
رجلٍ أخر..

* * *

كان سهلًا عليكِ أن ترحلي، وكان صعبًا عليَّ الزواجُ من غيركِ رغ
إلحاحِ أمي العظيم وشغفها لرؤيةِ حفيدِها الأول وولعها بجمالِ ابنة
صديقتها التي تقضي وقتها معها في الحديثِ عن نساءِ الحيِّ وأكل
لحومهنّ دون شفقةٍ تذكرُ وبتلذُذٍ ممتعٍ، مع كلِ كلمةٍ ينطِقنها فتتقطعُ بين
شِفاههنّ لحومُ تلك النساءِ.

أمي تلك المتعلمة التي تتباهى دائمًا بشهادتها الجامعية أمام
صديقاتِها والتي لم يكتب لفتياتِ جيلها الحصولُ عليها كما نالتَها هي
بامتيازٍ وتفوقٍ على كلِ قريناتها، نستَ ما تعلمتهُ في تخصّصِ شهادتِ
الدينية بأن الدين لا يفرّقُ بين كلِ البشر، فالأسودُ والأبيضُ في مق
واحد، لا يفضّلُ أحدُهما على الأخر إلا بتقوى القلوب والقرب من رب
العالمين.. نست كل هذا حينما توجهتُ إليها بخجلٍ كبيرٍ وخوفٍ عظيمٍ من
ردّةِ فعلها تجاه طلبي الذي وقع كالفأسِ على رأسِها فأرداها قتيلةَ الأمل
بيّ!

- أمي، أريدُ التحدث معكِ بشأنِ موضوعٍ يخصُّني.

أجابت بنبرةٍ خائفةٍ لأنها تعرفُ أني عندما أطلبُ الحديث معها فإن
هناكَ أمرًا مهمًا جدًا..

- تعال وأجلس بجانبي.. نعم يا ولدي، قل لي ما هو موضوعك
الخاص!

وبعد أن صمتُّ لعدةِ ثواني أحاولُ جمع عباراتي واختيار الجمل
المناسبة لهكذا حديث..

- أمي لطالما أردتِ أن تريني عريسًا مرتديًا ذاك «البشت» الأسود
الطويل وتلك الغترة البيضاء...

وبفرحٍ قاطعت حديثي..

- نعم يا حبيبي، إنهُ يومُ سعدي وفرحي حين أراك عريسًا تمشي بين
الوردِ ويداك تعانِقُ يديّ زوجتك، ويومُ المنى هو يوم ولادةِ طفلك الأول ح
أحملهُ بين يديّ وأرى وجهك الصغير في ملامحهِ مرةً أخرى...

بنشوةٍ أكملتُ حديثي...

- إذًا نحن متفقانِ على موضوعِ زواجي؟

- نعم يا بُني بالتأكيد سأكون فرحةً بهذهِ الرغبة، فأنت الآن في سن
التاسعةِ والعشرين وكلُ أبناءِ عمومتكَ تزوجوا وسبقوكَ رغم أنهم أص
سنًا منك..

- إذًا لنتحدث الآن عن الزوجة، يا أمي أنا...

تقاطِعُني سريعًا وتقول:

- زوجتُكَ عندي لا تقلق من هذهِ الناحية... ابنةُ صديقتي «أ
راشد» فيها من الجمالِ ما يسرُ عينيك، شعرها أسودٌ طويلٌ كشع
الفرسِ وعيناها جميلتانِ كفتياتِ البدو...

- ولكن يا أمي ما أريدهُ...

بضحكةٍ حماسيةٍ تقاطعُني مجددًا..

- أعلمُ أعلمُ ما تريدهُ، اسمعني يا ابني فأنا أعرِفُ كيف يفكر الرجالُ.. إن كنت تريدُ جسدًا جميلًا، فهي ذاتُ جسدٍ ممتلئٍ وجذاب يسعدك، كالفرسِ مثلما قلتُ لك سابقًا...

- لا، لم أكن أقصدُ ذلك يا أمي، فأنا أريدُ الزواج بفتاةٍ أملكُ وإيّاها العديد من الخِصالِ المشتركة وأحِبُ فيها أخلاقها قبل جسدِها، فالجسد يا أمي سيترهلُ يومًا، ما ولكن خُلُقُها هو من سيبقى طوال العمرِ..

تجيبُ أمي على حديثي وهي تحاولُ بشتى الطرقِ أن تجعلني أرضى باختيارِها لي..

- أووه يا ولدي، هي على خُلقٍ عظيم ودائمًا ترافِقُ أُمها في كل زيارتِها فتجذبُ أنظار جميع النساءِ وأظنُ أن العديد من نساءِ الحي يردن خطبتها لأبنائهِنّ.. وبالمناسبة قد أكملت دراستها الجامعية قبل سنة وتنتظرُ الآن قرار توظِيفها كمعلمةٍ في إحدى المدارسِ الابتدائية..

- أمي أرجوكِ افهميني...

- أنت الذي يجب أن تفهمني، فأنا أعرفُ أكثر منك في أمورِ النساءِ فقط قل أنك موافق مبدئيًا عليها، وأعدُكَ أنك ستُقَبِّلُ رأسي شاكرًا حين تراها في ليلةِ النظرةِ الشرعية..

ينفذُ صبري واحتمالي على حديثِ أمي التي تريدُ هذهِ الفتاة زوجة لي بإصرارٍ يُملّ من كان في قلبهِ عشقًا لفتاةٍ أخرى..

- أمي، أحِبُ فتاةً أخرى.. وأريدُ الزواج بها..

تندهِشُ أمي من كلامي وتبلعُ ريقها بغصاصةٍ ثم تقولُ لي:

- تُحِبُ فتاةً أخرى؟!.. من هي؟!!.. ومنذُ متى وأنت تُحبُها؟!

- نعم كما قلتُ لكِ يا أمي العزيزة، أُحِبُ فتاةً أخرى وحبي لها كبير جدًا، وقد التقيتُ بها قبل سنتين حين انتقلنا من مدينة الخبرِ إلى الرياض..

- قل لي من تكون؟

- إحدى بنات عمي....

- بناتُ عمك؟!

وبعد تفكيرٍ عميقٍ وسريع وعينيها تُحدِقُ في السقفِ...

- ابنةُ عمِك خالد؟ مُنى؟ ولكن هي تصغرُك بسبعةِ سنين!

- لا ليس هي يا أمي..

- إذًا ابنةُ عمِك عبد العزيز.. ليلى؟ فلم يتبق من بناتِ أعمامِك العازبات إلا ليلى ومنى!

- وأيضًا ليست هي من أُحِبُ... ما بالُكِ يا أمي نسيتِ إحداهُن!

تحتارُ أمي بالتخمين وفجأةً تصرخُ وتتحدثُ بسرعةٍ كبيرةٍ لا أستطيع من خلالها أن أفهم ما تقولُ:

- حنيـــن!!!!!! هل فقدت عقلك؟ هل جُنِنت؟ تريدُ أن تتزوج هذه المريضة، تريدُ أن تقهُر قلبي حين أرى أطفالكَ مِثلَها، لطالما استغربت


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

من سؤالِك عنها ولكن لم يخطرُ ببالي أنك قد تُجنُّ وتُحِبُّها!!

وتفشلُ كل محاولاتي في التخفيفِ من روعِها ويحمى جمرُ الغضب في لسانِ أمي..

- أنصت إلي جيدًا، والله ثم والله يا هتان لن أسمح لك بالزواجِ من هذهِ المريضة وأنا على قيدِ الحياة، إن أردتني أن أموت قهرًا فاذهب وتزوّجها واخرجُ عن أمري، لن أسمح لكَ أبدًا أن تعيش في بيتٍ لا يُسمعُ فيهِ إلا صوتك، ولن أسمح لك بأن تُعذِّب أبناءك حين يولدون بلا صوتٍ يسمعُ، ولن أرضى عليك حتى في موتي إن تزوجتها وسأقول لربي في يومِ الحشرِ أنك خرجت عن مشورتي وعصيتني وأني لستُ براضيةٍ عنك.. لعن اللهُّ حُبكَ هذا، تُحِبُ...... بكماء!

* * *

على الطاولةِ أجلسُ وحدي، صفحاتٌ قليلةٌ بجانبي أراها تغيّرُ من شكلِ طاولتي، قلمُ وممحاةٌ وورق، أحكي بهم تفاصيل حزني الذي بات صديقي الوحيد. قلمي لا يملُّ من تحريضي على الكتابةِ، ينفثُ الحبر دون هوادة، وورقي يغويني على إسقاطِ ثقلِ الحزنِ الأسودِ على مساحاتهِ البيضاء، وأما ممحاتي فلا أجدُ لها فائدةً تذكرُ سوى أنها تذكّرُني بأن الأخطاء واردةٌ في كلِ الأحيانِ، كخطأ تعلقي بكِ إلى الآن وإلى غدٍ، وإلى أن أقِف بين يدي ربي وأتضرَّعُ لهُ بأن يجزيني على هذا الحزنُ الذي أهلكني في حياتي وأن يجعلكِ خير جزاءٍ لصبري على

حُزني...

أَحِنُّ إليكِ كثيرًا يا حنيني، أحنُ لكلِ تفاصيلكِ الصغيرة غي
المسموعة ولكلِ الكلماتِ التي كُنتِ تجاهدين نفسكِ على نُطقِها لتسعد
قلبي بسماعِها حينما صِرتُ أنا صوتُكِ.. وأفتقدُ إشاراتكِ لقلبكِ ح
أقولُ لكِ أُحبُّكِ فلا تجدين طريقةً لتقولي «وأنا أيضًا يا حبيبي» إ
بوضعِ إصبعُكِ بين نهديكِ لتبيني لي أنني هُنا في فؤادكِ.

* * *

(2)

لا زالت الذكرى تُحلِّقُ كنسرٍ جائعٍ في رأسي، يبحثُ عن فريس
يشبعُ بها بطنهُ الصغير، ولكنهُ لن يرضى إلا باصطيادِ أرنبٍ سمين! وتبً
للنسرِ الذي يحومُ في رأسي لن يرضى بغيرِ دمعي كأرنبٍ مناسبٍ لوجب
غدائهِ!

* * *

قبل نحوِ خمس سنواتٍ من الآن، عاد أبي فرِحًا للمنزلِ، يحملُ مع
بشرى وأخبارًا سارة.

اجتمعنا كُلُنا على طاولةِ الغداءِ ننتظِرُ هذهِ البشرى بفارغِ الصبر
بينما كان أبي يأكلُ مبتسِمًا، فيزيدُ الفضولُ في عقولنا أنا وإخوت
لمعرفةِ خبايا هذهِ الابتسامة الجميلة.

انتهى أبي من القضاءِ على فخذِ الدجاجةِ التي قُتِلتَ لنتلذذ بلحمِهِ ورفع رأسهُ كمنتصرٍ في الحربِ وقال لنا:

لدي أخبارٌ سارة يا بُني ويا بناتي.. جاءتني ترقيةٌ جديدةٌ في العمل ولكن لأحصُل عليها يجِبُ علينا الانتقال لمدينةٍ أخرى!

وبصوتٍ واحدٍ أجبنا:

الريــــــاض!

وكانت ضحكته وابتسامته كفيلتيِن بإدخالِ السرورِ إلى قلوبنا للحد الذي يجعلُني أعدُّ حقائبي في نفسِ الساعة، فلطالما تمنينا أنا وأختم الصغيرتيِن العودة للرياض بعدما انتقلنا منها من أجل ترقياتِ أبي الكثيرة والتي تجعلهُ يتنقلُ بنا من مدينةٍ إلى مدينة دون أن يبالي بنا وبعلاقاتنا مع الأصدقاء التي سرعان ما يقتلُها الرحيل لبلدةٍ أخرى ليبدأ معها مسلسلُ تكوين العلاقاتِ والتعرفُ على أصدقاءٍ جدد. ولكن هذ المرة نحنُ عائدون للرياضِ بعد خمس سنيِن من الغيابِ عن سمائ الزرقاء وعن ضجيج السياراتِ وتكدُّسها في شوارعها الطويلة.. عائدون لنُعانقَ وشاح جدتي الكبيرة الذي تفوحُ منهُ رائحةُ البخورِ الأصيلة ونسم من عليلِ الجنةِ الزكية ولننعم بأحاديثها الطاهرة الطيبة التي تكادُ تسمع فيها اسم الله في كلِ جملةٍ وبعد كلِ عبارة.

ولم أكن أدري وأنا أُعِدُّ حقائبي بأنني راحِلٌ لمصائبِ الحبِ، ولقم جبالِ العشقِ، فالحبُ يا حبيبتي مصيبةٌ جميلة تأتي من غيرِ ميعادٍ ومر

دونِ استئذانٍ، تقتحمُ أبواب القلبِ لتصيبهُ بتعويذةٍ رقيقةٍ تجعلُ ها
القلب ينبضُ لهذا الحبِ كمسحورٍ يتلاعبُ بهِ، والعشقُ يا عشيق
كالجبالِ العالية، يقرّبُنا للنجومِ والغيوم، يجعلُنا نطيرُ في سماءِ الهذيار
كطيورٍ جميلة الجناحين، ويسافرُ بنا نحو قمرِ الغرام وشمسِ الهيام.

ولم أكن أدري بأنني سأُحلِّقُ بِحُبكِ عاليًا.. عاليًا....

ثم سأسقط مغشيًا على وجهي، ومغشيًا على قلبي!

وعلى عتبةِ بابِ منزلِ جدتي الكبيرة، كان اللقاءُ الأولُ حاضرًا بينن
وكانت نظرةُ الإعجابِ الأولى واضحةٌ في أعيُنِنا، وكان صدى نبضا
العشقِ الأولى يسمعُ في أرجاءِ صدورنا. حينما طرقتِ باب المنزا
واتجهتُ لأجيبَ طرقكِ، ففتحتُ الباب لأجدكِ حاملةً باقةً من الوردِ وكأ
وردةً تحملُ وردًا، أو ملاكًا نزل من السماءِ وفي يديهِ ورود من الجنة.
ياه كيف لعتبةَ هذا الباب أن تدخلنا في حدودِ خُرافةٍ تدعى الحُب مز
أولِ نظرة! وأنا من كان يضحكُ كثيرًا على صديقي خالد حينما أتم
ليحكي عن تلكَ الفتاة التي قابلها صُدفةً في أحدِ المطاعمِ وراق لعينيه
جمالُ عينيها فجاءني يحملُ فوق أكتافهِ جبالًا من الحزنِ بعدما
يستطع أن يقترب أكثر منها ويخبرُها بأنهُ أحبها من أولِ نظرة! تلك
الخرافة آمنتُ بها حينما رأيتُ عينيكِ اللتين تُشبهان نجمتان معلقتان فم
وشاح السماء أو كشمسٍ مُشرقةٍ في فضاءٍ أبيضٍ طاهر، وذاك اللة
الذي يخفي ما تبقّى من وجهِ جنّتُكِ فيزيدكِ طهارةً على طهارة. كُنت

تقفين بخجلٍ كبيرٍ يبانُ في عينيكِ دون أن تقولي أي كلمةٍ أو تسألي عن
سكّان هذا المنزلِ.. وقعت صريع جمال عينيكِ وأربكني وقُوفكِ على
البابِ.. فجاءَ صوتُ أمي مناديًا لي من الخلفِ..

- هتان.. من لدى الباب؟

بارتباكٍ أجبتُها:

- لا أعلم ولكن هُناك امرأةً تقفُ عند الباب.. تعالي وتحدّثي معها.

فاقتربت أمي من البابِ لترى تلك الزائرة حينما ابتعدتُ وهممتُ
بالدخولِ إلى المنزلِ..... وبعد لحظاتٍ قليلةٍ دخلت أمي وقالتَ لي:

- هتان، اذهب واجلس في الطابقِ العلوي فإن لدينا ضيفةٌ عزيزة.

حبستُ فضولي في داخلي واتجهتُ للطابقِ الأعلى وأنا أحاول
استراق السمعِ لأعرف من تكون صَاحبةُ العينين الجميلتين ولكن صوت
التلفازِ كان كفيلًا بتشتيتِ سمعي، حتى رأيتُ أختي جُمانة ذاهبةً
لغُرفتِها التي تتشاركها مع عمتي بعدما أتينا فجأةً للرياض واضطررنا
للمكوثِ في بيتِ جدتي، فأوقفتُها وسألتُها عن تلك التي راق لقلبي جمال
عينيها...

- جُمانة، من لدينا؟

- هذهِ حنين...

- حنين؟! ومن تكون هي؟

- ألم تعرفها يا مغفل؟ إنها ابنةُ عمي.. البكماء! هل نسيتها؟

توجهت جُمانة لغرفتها وتركتني أُصارعُ أفكاري وذكرياتي التي
جمعتني بكِ في طفولتنا البريئة، وبدأتُ أذكرُ كيف كُنتِ تجلسين حزي
بجانبِ أمكِ في الوقتِ الذي نلعبُ فيهِ جميعُنا في فناءِ منزلِ جدتي، كُ
تحزنين من عدمِ قدرتكِ على التحدثِ معنا ومن مضايقاتِ أبناءِ عمي ا
عندما يحاولون جعلكِ ترددين الكلماتِ خلفهم ويظنون أنهم هم من
سيجعلونكِ تتحدثين، وكيف كُنتِ تبتسمين وأنتِ تسمعين غناء الفتيا
الصغيراتِ دون أن تستطيعي مشاركتهن الغناءِ، ولا زلتُ أذكرُ أيضً
دميتكِ الصغيرة التي تأخذينها معكِ لكلِ مكانٍ تذهبين إليه فوحدها هـ
من تستطيعُ سماعَ صوتكِ ومن تستطيعين أنتِ التحدثَ معها دو
الحاجةِ لصوتٍ مسموعٍ! وأذكرُ كيف جئتِ راكضةً نحونا، وأنت تحاولي
أن تخبرينا عن جُمانة حينما كانت تتألمُ بعد وقوعِها من على الدراجةِ،
واكتفيتِ بجذبي معكِ لأرى جُمانة مستلقيةً في الفناءِ، ياه يا حني
جمعتنا ذكرياتٌ كثيرةٌ في الصغرِ، ولكني لم أستطع التعرّف عليكِ حينم
كبِرنا وتغيّرت مع نضوجنا ملامحُنا..

ورُحتُ أتساءلُ أيضًا، هل ذكرتني؟ أم أنني تغيرتُ كثيرًا ول
تعرفيني؟ فشعري لم يعد طويلًا وناعمًا كما كان في الصغرِ، جعدت
سنيُن المراهقةِ وبعثرتهُ طوابيرُ العملِ، ووجهي اسمرَّ وانطفأ نورهُ بعد
كان ينيرُ بالبراءةِ وتتزاحمُ فيهِ خدودي، وتلك الشامةُ التي تميّزُ رقبتي
عن كلِ الرقابِ اختفت وراء شُعيراتِ ذقني، يا ترى عرفتي من أكون؟ أ

أنكِ نسيتيني كما نسيتُكِ أنا؟

أخذني التفكيرُ لذكرياتٍ عميقةٍ جمعتنا، ولم أكن أدري أن هنال
ذكريات جديدةً ستجمعُنا مجددًا ثم ستقسمُنا لنصفينِ حزينين!

قطع حبل ذكرياتي صوتُ جدتي التي كان تودّعُكِ، فهممتُ بالنزو
بعدما سمعتُ صوت الباب يغلق.. وجدتُ جدتي لا تزالُ تدعي لكِ بالخ
وبالنصيبِ الذي بات يزعجُها تأخرهُ عليكِ وأنتِ على مشارفِ الع
السادسُ والعشرونُ من ولادتكِ..

جلستُ بجانبها وقطعت دعائها بلطفٍ.

- جدتي، أعطينا القليلَ من هذهِ الدعوات الطيبة..

ابتسمت والتفتت إلي..

- يا هتان دعني أدعو لهذهِ المسكينة التي ينفطرُ قلبي كلما رأيتُها.

- سلامةُ قلبكِ يا أمي الكبيرة من كلِ شر.. لكن من هذهِ المسكين
التي تدعين لها بالخيرِ يا جده؟

- إنها حنين ابنةُ عمِك، للتو كانت هنا وقد جاءت لتتحمد لكم
بالسلامةِ بعد عودتكم للرياض..

- إذاً لماذا ينفطرُ قلبكِ عليها؟

وبعد زفيرٍ خرج من صدرِ جدتي وهو يحملُ زخاتٍ من الهمِ..

- هل تصدّق يا هتان أن أجمل بنات أبنائي لم تتزوج بعد؟
والصغيراتُ منهن تزوجن وأنجبّن، ولكن هذهِ المسكينة لا زالت تنتظ

نصيبها الذي تأخر بسبب قدرِ اللهِ الذي جعلها بكماء..

بعدما رأيتُ الحزن بدأ يظهرُ في نبرةِ كلامِ جدتي حاولتُ تغيير مجرى الحديثِ وقلتُ لها بمكرٍ..

- لا تبالغي يا جده، لا أظنُ أنها أجملُ منكِ..

أجابت وهي تبتسمُ..

- والله يا هتان إن فيها ما يجعلُها أجمل من جدتِكَ ومن جميعِ نسا الحي، تخيّل، ذات يومٍ كانت تجلسُ عندي في الوقتِ الذي زارتني فيـ إحدى الصديقات، ولأن حنين تخجلُ من نظراتِ النساءِ لها تركت المكان وما إن ذهبت حتى سألتني صديقتي عنها وقالت لي إنها أُعجِبتَ بجمالها وأنها تبحثُ عن زوجةٍ لابنها، ولكن ما إن قلتُ لها أنها بكماء ولا تستطيعُ النطق حتى تناستَ أنها كانت تتحدثُ في موضوعِ الزواج وبدأت تتطرقُ لأحاديثٍ أخرى، يا حسرتي على ابنتي، عيبُها هذا يلغي كل ما فيها من جمالٍ وخُلقٍ في أعيُن الناسِ...

أنهيتُ حديثي مع جدتي بدعائنا سويًا لكِ بالخيرِ يا حنيني قبل أن أخرج لصديقي خالد الذي كان ينتظرُني في الخارجِ...

خالد ذاك الصديقُ الذي عشتُ معه مراحل الطفولةِ في المدرسة والذي لم ينسني يومًا رغم بُعدي عنه لسنواتٍ طويلة، أختلفُ معهُ كثيرًا فهو يمتلكُ جراءةً لم أر مثلها من قبل، لا يجاملُ أحدًا ويدّعي أنه صادق مع الجميعِ ولذلك لا يحبُ المجاملة، ويمتلكُ أفكارًا منحرفةً عندما يتعل

الأمرُ بالفتياتِ.. فهاتفهُ المحمول يكادُ يغمى عليهِ من كثرة أرقامِ النسا
اللواتي يتحدثُ معهن بلا أدبٍ أو حياءٍ، يسجلُ أرقامهنُ تحت اس
واحد! فكلُهنّ يتشاركن اسم «الحب» ولكن يختلفن بالرقمِ الذي يلي
«الحب»! سألتهُ مرةً: ألا تنسى أسمائهنّ؟ فأجاب ساخرٍ: أنا لا أنسى
نسائي! فالحبُ رقمُ واحد تدعى عهود، وأروى هي رقمُ اثنان وهكذا إلى
أن أصل إلى الرقمِ أربعة! وإن سألتهُ لمَّ أربعةٌ بالتحديد؟ أجاب: لأن
الشرع حلل لي أربعة نساء!

والمعضلة أنهُ لا يتمسكُ بهذهِ الأربعة فقط، بل أنهُ يبدلهنّ متى م
انتهت رغبتهُ وشهوتهُ بهنّ! وكأنه يُطلّقُ إحداهن ويبدلُها بأخرى جديدة
هذا غير الفتياتِ اللواتي يقابلهُنّ في سفرهِ وتنتهي متعتهُ معهن
بالجلوسِ على مقعدِ الطائرةِ المتجهةِ نحو الوطن!

لا أعلمُ لما أحبهُ، ولكني لم أجد صديقًا أخر أتحدثُ معهُ بشفافي
غيرهُ.. خرجتُ معه وقصدنا أحد المقاهي المنتشرةِ في أرجاءِ الرياض
وهناك تحدثتُ معه عنكِ يا حبيبتي، فمنذُ أن رأيتُكِ لم أستطع أن أُخرجِ
من عقلي..

بدأ خالدُ الحديث باستعراضِ ذكرياتهِ مع النواعمِ كما يفعلُ ويحد
أن يتحدث عنهنّ دائمًا، فألقيتُ عليهِ بسؤالٍ أزعجهُ وأقلقهُ..

- حسنًا يا صديقي، تقولُ أنكَ تُحبُ الفتياتِ بشتى هيئاته
وعيوبهنّ، ولكن قل لي يا خالد ماذا لو أُعجبتَ بفتاةٍ بكماء!

- بكماء!

- نعم بكماءُ جميلةٌ وفيها كلُ ما تتمنى تقبيلهُ!

- أمم، لا أظنُ أنني قد أعجب بفتاةٍ مثلُها!

- لنفترض ذلك يا صديقي..

وفي محاولةٍ للهروبِ من الإجابةِ..

- لا أحبُ الفرضيات يا هتان، أنا رجلٌ واقعي.

- والواقعُ يقولُ أن هناك الكثير من الفتيات اللواتي لا يستطعن التحدث يا صديقي، ماذا لو التقيت إحداهُنّ!

- حتى لو التقيتُ بفتاةٍ بكماء لن أُحِبها لأنني لا أريدُ أن أظلُم نفسي معها، عقدتُ حاجبيّ مستنكرًا لما قالهُ خالد ورددتُ عليهِ..

- لا تريدُ أن تظلم نفسكَ معها؟! ولما تظلمُ نفسك حين تحبُ فتاة بكماء! قد تكون يا صديقي العزيز أطهر وأنقى من تلك الأجساد الناعمة التي تتغنى بها في كل ليلةٍ وفي كلِ جلسةٍ، وتكون الشهوةُ هي الدافع الوحيد لك دون أن يربطُك معها أي حبلٍ من حبالِ العشقِ أو حتى ميثاق غليظ! أليس كلامي صحيحًا؟

صمتَ خالد وسكتُّ معهُ أنا وفي داخلي دماءُ تهتفُ بالنصرِ.

فمنذُ أن رأيتُكِ يا حنيني وأنتِ قضيّتي وحدي، أدافعُ عنكِ بشراسة وفي دفاعي عنكِ أنصرُ أنفارًا على شاكلتك.

دافعي لم يكن عطفًا عليكِ وعلى حالكِ، ولم تكن صلةُ القرابة تلك

دافعًا للوقوفِ في صفكِ، بل إنها القناعةُ التامةُ في صدري بأن ليس هناك إنسان ناقص، وليس هناكَ بشرَ بقدراتٍ محدودة، فنحنُ من نصنع أنفسنا بالشكلِ الذي نريدهُ، وربَّ بشرٍ لا يقوى على النطقِ وفي لسانه دررٌ وحكمٌ.

* * *

(3)

مرت أيام.. أيامٌ دونكِ

أنحتُ فيها صخر الحبِ دونكِ

أطلقُ أمنياتِ اللقاء وحدي دون أمينك

أسهرُ ليلها مع الدمع.. دونكِ

أقضي نهارها مع اليأس.. دونكِ

حتى طغت نيرانُ الذكرى..

حتى مات القلبُ.. دونكِ

ليلٌ ذو سحابٍ اسود، وسماءٌ ترعدُ، ومطرٌ يهطلُ، وروحُ مبتلة من ميه الحنين، ومن أمطارِ الحزنِ العظيم.

هكذا ليلي دونكِ، أسودٌ في كلِ الأزقةِ.. كلُ شيءٍ ممتزجٌ بالسواد كوبُ القهوةِ الذي على يميني، والقلمُ الأسودُ الذي أكتبُ بهِ أنيني.

بحثتُ عن النسيان، في كلِ الطرقات، وفي كلِ الممرات.. طرقتُ با
وأهديتهُ كل ذكرياتي وصور عينيكِ، وارتجيتهُ كثيرًا ودعوتهُ لزيارةِ عقلي
ودهاليزِ قلبي. ثم دعوتُ الرب أن يحييه في قلبي، أن ينزله على صدري
كوحيٍ يلقّنُني آياتٍ وتعويذاتٍ تطردُكِ من رأسي، وتهدمُ بيتكِ العالي ف
فردوسِ قلبي، ولا هو الربُ الذي استجاب دعائي، ولا هو النسيانُ الذ
قبل دعوتي!

حاولتُ أن أنساكِ، وأن أطرد كل ذكراكِ.. وعلى بُعدِ ثوانٍ قليلةٍ م
النسيانِ، أشعرُ بأنني اشتقتُ إليكِ!

مرت الأيامُ منذُ أولِ سقوطٍ في كمين عينيكِ، ومنذُ أول مرافعةٍ
قضيةِ شفتيكِ، مرّت هكذا سريعًا دون أن أشعر بقيمةٍ لها، ودون أ
أقطف أي ثمرةٍ منها، وكأن أيامي تنتظرُكِ لتكوني لها سببًا للسعاد
وللحياةِ وللفرحِ.

هاتفي يرنُ بحماسٍ ويومضُ باسم أمي على شاشتهِ وأنا غارقٌ
أوراقِ «البلوت» التي بيدي وشارد الذهنِ أفكرُ في طريقةٍ أكسبُ ب
هذهِ الجولة، وأحطم رأس ملك اللعبةِ خالد، إلى أن شتت أفكاري صوت
صديقي الذي ينبهُني بأن هاتفي يرنُ..

- أهلًا أماه..

- أهلا هتان، أين أنت؟

- مع أصدقائي.. هل تريدون شيئًا؟

- بنتُ عمكَ هُنا وتريدُ أحدًا يقومُ بإيصالها للبيتِ وعمّكمنشغلٌ بعمل آخر.

وبقلبٍ يرددُ بـ «يا رب» سألت..

- من؟ حنين؟

- نعم..

- بضعةُ دقائقٍ وسأكون لديكم...

قذفتُ أوراق اللعب وهممتُ بالخروجِ، وخالدٌ يضحك ويقول «هكذ يهربُ الجبناء».. وليتهُ كان يعلمُ أنني كنتُ أهربُ منهُ لأربح جولةً أخرى جولةً تحتاجُ لمكرٍ من نوعٍ آخر أمام رقةِ رمشيكِ.

وفي الطريقِ كنتُ مُنشغلًا بتهذيبِ ذقني وتعديلِ هندامي وإبر شيءٍ من ملامحِ رجولتي كتلكَ العضلتين الكبيرتين في ذراعيَّ، ف أحتاجُ لأن أكون في حلةٍ جميلة لأجذب عينيكِ وربما قلبكِ، وأنتِ ل تكوني بحاجةٍ لإبرازِ أنوثتُكِ، فعينيكِ متكفلتين بهذا الأمر والقليلُ م زخاتِ عطركِ كانت كفيلةً بإغوائي.

ولا أذكرُ كم من إشارةِ مرورٍ حمراء قد تجاوزتُ وأنا متلهفَ القل لرؤيتكِ مجددًا.

هكذا هي الفرصة لا تتحملُ إشاراتِ مرورٍ تأخّرُها فتذهب دون أ فرصةٍ أخرى تتكرر.

وصلتُ لعتبةِ بابِ منزلِ جدتي وكأنّ العتبة تبتسمُ لي وتقول «أنا عت

بابُ الحبِ وأنا عتبةُ سعدِك».

اتصلتُ بأمي وأخبرتُها بأنني في الخارجِ أنتظرُكِ. وانتظرتُ خروج وكأني أنتظرُ خروج عروستي من حفلِ زِفافنا لأختلي بشفتيها وأستنشقُ رائحة عطرِ رقبتِها.

وبعد خمس دقائقٍ مرت ببطءٍ شديدٍ أتعبت قلبي الشغوف لرؤيتكِ. فُتِح بابُ المنزلِ وعيناي تحدّقان نحوهُ وتتأمل أطراف عباءتكِ لعلي أر شيئًا من بياضِ ساقيكِ أو تهبُ ريحٌ تجعلُ عباءتكِ تلتصقُ بخصركِ ف شيئًا من انحنائه المثير.

ظهرتِ كقمرٍ سقط من السماءِ أو كملاكٍ يشعُ نورًا، ظهرتِ وبدأ القل يرتبِكُ ويتعالى صوتُ نبضهِ. يااه ما أجملكِ وما أجمل هذا اللثام الذي يظهرُ إلا عينيكِ ورمشيهِما الناعمين. أحببتُ لثامكِ كثيرًا رغم أنه يحرمُ من التمتعُ بالنظرِ لوجهٍ ملائكيٍ بديعِ الخُلقِ.

أزحتُ ناظري عنكِ، وأذناي تنتظرُ صوت فتح الباب.. صوت أول خطواتُكِ في أرضي، وأولُ قربٍ بيننا دون حاجزٍ أو محرمٍ!

فُتِح الباب، وركبت أميرةُ الأشعار، ودِماءُ قلبي بدأت بالغليان.

ما أجملها من لحظةٍ حين تقودُ سيارتكَ والقمرُ يُرافقُك، تشعرُ بأ تطير فوق الغيوم، وتتباهى بقمرِك أمام النجوم. تشعرُ أنك في جولة استثنائية، لا تريدُها أن تنتهي، لا تريدُ أن تصل لوجهتك، وتتمنى أن تتوه بين الطرقات وأن تطول المسافات، فقط لكي تكسب مزيدًا من


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

اللحظات.. مزيدًا من نبضاتِ الحبِ الجميل

انطلقنا وانطلقتْ في داخلي أمنياتُ كثيرة، وأحلامٌ كبيرة كُنتِ أن سيدتُها وأميرتُها. وكم كُنتُ ممتنًا لتلك المرآة الصغيرة المعلّقة أمامي فقبل هذهِ اللحظة لم أكن أعرفُ فائدةً تذكرُ من صُنعِها، حتى صارت الأداة التي أستطيعُ من خلالها رؤية عينيكِ والجزء الصغيرِ الظاهرِ من وجنتيكِ.

لم يكنُ هُناك كلامٌ يحكى بيننا، فكما يقولونُ يا جميلتي «الصمت في حرمِ الجمالِ.. جمال!». وما أجمل ذلك المطرب الذي كان صوتُه الشامخ يكسرُ هدوء جولتنا، وما أجمل كلمات ذلك الشاعر الذي كان يكتبُ قصيدتُه للحظةٍ كهذهِ..

«أحِبيِّني بلا عُقَدِ

وضيعي في خُطُوطِ يدي

أحبيني لأسبوعٍ.. لأيامٍ.. لساعاتٍ

فلست أنا الذي يهتم بالأبدِ..».

(نزار قباني)

أحِبيني.. فأنتِ حالةُ إدمانٍ لا تتكرر.. ونهرُ هذيانٍ، وقطعٌ من السُكر.

أحِبيني فأنتِ واحدتي ومُهلِكتي.. وبين عينيكِ، أريدُ حفر قبري.

أحِبيني.. فأنتِ نبضُ قلبٍ لا يهدأ.. وليلةُ جنونٍ وأجملُ مرفأ.

أحِبيني.. فأنتِ، لا أعرفُ حقًا من أنتِ! سوى أنكِ الوحيدة الت
تجيد القفز بين شرايين قلبي.

أحِبيني.. لا تترددي ولا تتأخري فأنا مشغولٌ بنسجِ قصيدتي.
وضعتُ فيها عينيكِ، ورسمتُ فوقها شفتيكِ، وأخافُ أن تتأخري.. فأُحِبُه
أكثر من خديكِ!

وما إن انتهت حالةُ هذياني اللذيذة، حتى وجدتُ أننا قد وصلنا.
وصلنا وبابُ منزلكِ مشتاقٌ لعودتكِ والنوافذُ بنظرةٍ مشتاقةٍ تنظرُ إليكِ،
شيءٍ في ذلك المنزل يترقبُ عودتكِ وكأنكِ الكهرباءُ التي تضيئُ أرجاءه
لحظةُ فرحٍ تعيشُها أرضُ ذلك المنزل، ولحظةُ تعاسةٍ يعيشُها قلبي.. كيف
أدعُكِ تذهبين وأنا لم أكتف، ومازال قلبي يريدُ الكثير والكثير منكِ..

وبابتسامةٍ ناعمةٍ نزلتِ، ابتسامةٌ لم أرها بشكلها المعروف، بل رأيتُها
تخرجُ من عينيكِ، ولم تستطيعي أن تقولي وداعًا، ولكنها عينيكِ كانت
تلوحُ بـ «إلى لقاءٍ آخر!».

عدتُ إلى منزلي وسريعًا صعدتُ إلى غرفتي وأنا مبتسمًا ومزدحمً
قلبي بكِ.. وفي تلك الليلة لم أحتج لمداعبةِ النوم لكي يأتي، بل جاء
سريعًا كما يأتي بعد نشوةِ الجسدِ..

نمتُ مبتسمًا.. وصحوتُ وأنا كذلك.. وكانت عيناكِ هي آخر ما فكر
بهِ.. وأول ما تذكرتهُ حين استيقظت.

أصبحت رؤية عينيكِ تنزعُ ابتسامةً جميلةً على ثغري.

* * *

حين نحبّ تتعلق سعادتُنا على أكتافِ من نحبهم، فإن أداروا لنا ظهورهم، أدارت لنا السعادةُ ظهرها وإن اقتربوا منا زادت نبضاتُ السعادةِ في قلوبنا.

حين نحب يصبحُ من نحبهم.. فرحنا وابتسامتنا وبهجتنا والليل الطويل الذي نسهرهُ بملءِ إرادتِنا، وشمس الصباحِ البشوشة، ونكهة القهوةِ الحلوة.. وأحيانًا المُرَّة!

يصبحون كل شيءٍ جميلٍ في حياتنا، وما سواهم لا يذكرُ حتى وإن أعطانا ما لم يقدروا هم عليه.

هكذا أصبحتِ أنتِ، فرحي وسعادتي وبهجتي وكل الأمورِ الجميلة في حياتي. أصبحتِ ابتسامتي الحلوة، وفرحتي الكبيرة، وكل ما يتعلق بكِ يسعدُني مهما كبرُ أو صغر. قهوتي لم تعُد بحاجةٍ لقطعٍ من السُكر فقط القليل من الغرقِ في ذكراكِ كان كافيًا ليوهم عقلي بأن كل شيءٍ ذو مذاقٍ سُكّريٍ.

منذُ تلك الليلة وتلك الجولة وأنا أبحثُ عن طريقةٍ أصِلُ بها إليكِ، أريد أن أخبركِ بأنني تجاوزتُ مرحلة الإعجاب، وما أراهُ في نفسي لهو علاماتُ الهيام. أريدُ أن أخبركِ بأنني أريدُكِ وأنني أحبُ كثيرًا عينيكِ وإن عينيكِ - والله - رائعتان. أريدُ أن أكتب لكِ قصيدةً وألقيها على مسمعكِ

حتى أرى سنّكِ الضاحك الخجول، واستمتعُ برؤيةِ لونِ الوردِ الأحم
على خديكِ.

ما أكثر ما أريدُه معكِ، ولكن كيف السبيلُ إليكِ؟

(4)

ها هي الليلةُ العاشرةُ من بعدِ ذلك اللقاء.. ليلةُ فجيعةٍ كبرى، ليلةُ
دموعٍ عظمى، وآهاتٍ كثيرة، وأنينٍ طويل، ونحابٍ ليس بقليلٍ...

الساعةُ تصيرُ إلى السابعةِ قبل البكاء، وأنا غارقٌ في كتابةِ رسال
الماجستير. رقمٌ غريبٌ يتصلُ بي، لا أذكرُ أنني رأيتهُ من قبل، بهد
رفعتُ هاتفي وأجبتُ على تلك المكالمةِ المشؤومة...

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- الأخ هتان؟

- نعم، من معي؟

- معك الدكتور سعود من مستشفى الملك فيصل التخصصي.

بعدما ارتعش جسدي خوفًا ألفُ مرةٍ في ثانيةٍ واحدةٍ فقط.. أجبت:

- خير إن شاء الله؟

- نريدُك أن تحضر حالًا هنا..

- لماذا؟ من هو المصاب؟

- تعال الآن وستعرفُ كل شيء.

- انتظر.. انتظر.. لا تتركني حائرًا هكذا، قل لي من لديكم؟

- تعال الآن يا أخ هتان وستعرف كل شيء.

- أرجوك قل لي من المصاب، ألووو...

توت ... توت

المتصل أنهى المكالمة وأنا أحملُ قلبي بين يديَّ.

«يا الله يا رحيم أُلطف بنا، يا كريم يا عزيز أُلطف بحالنا ولا تُرنا مكروهًا في أحدٍ من أحبابنا..» هكذا بدأتُ أرددُ وأدعو الرب بأن لا يُحزن قلوبنا وكأنني كنتُ على درايةٍ بأنني سأواجهُ أصعب موقفٍ قد يمرُ بهِ الإنسان في حياته.

جذبتُ ثوبي سريعًا، ارتديتهُ وخرجتُ من غرفتي راكضًا.. يا الله نسيتُ مفاتيح سيارتي.. عدتُ وأخذتُها سريعًا وفي طريقي لباب الخروج، كانتا، أمي وجدتي جالستين هناك قريبًا من البابِ، وشاهدتا الخوف في عينيَّ وأنا أسابقُ نفسي للخروج، وكيف كانت ترتعش يداي.. مسكتُ مقبض الباب ودفعتُ بهِ بعيدًا ففي حالةِ خوفٍ كهذهِ يجبُ أن تقف أمامنُا أيةُ أبواب..

أركضُ للسيارةِ وأمي تركضُ خلفي وهي تنادي «هتان، هتان.. ما توقف أرجوك.. هتان لا تتعبني توقف».. وآهٍ يا أمي ليت قدماي كانتا قادرتين على التوقفِ، كلُّ شيءٍ فيَّ لم أعد أستطيعُ التحكم بهِ، والوحيد

الذي كان مستعدًا للتوقفِ هو نبضُ قلبي..

كيف لا يتوقفُ نبضي وأنا أعلمُ ما سأواجهُ هناك، وأنا أعلمُ أنني سأعودُ باكيًا على رجلٍ لا يُعوَّضُ أبدًا، وحزين القلبِ على أبٍ لا أستطيع مهما كبرتُ أن أعيش دونه...

فوحدهُ هو أبي من خطر في بالي، واهتزت كل أطرافي بمجرد التفكير بأنه متعبٌ أو مصابٌ.

ويا ليت حدسي كان كاذبًا.. ليتهُ كان وساويس شيطانٍ لعين، أو أضغاث أحلامٍ وبعد قليلٍ سأفيق.

الطريقُ إلى المستشفى - في زحمة الرياض الشهيرة - أخذ مني ما يقاربُ الخمسة والثلاثين دقيقة.. ومئة دعاءٍ للرب، وخمسين رجاءً للرب وربما سبعين مكالمة لهاتفِ أبي الذي يزيدُ من قلقي في كلِ مرةٍ يجيبُ «عفوًا إن الهاتف المطلوب لا يمكن الاتصال به الآن»، والكثير من اللعنات على هذا الهاتف الذي يأبى بأن يطمئن قلبي، وعلى كلِّ سيارةٍ أمامي تؤخرُ وصولي للمشفى.

وصلتُ وركنتُ سيارتي أمام باب المشفى دون أن أهتم لصراخ حُراسِ المشفى وهم يأمرونني بإزاحتِها. توجهتُ سريعًا لمكتب الاستقبال..

- السلام عليكم أخي.. أحدهم أتصل بي وأمرني بالحضورِ حالًا. خيرٌ إن شاء الله، ماذا أردتم مني؟

- ما اسمك؟

- هتان محمد..

- لقب العائلة لو سمحت..

- الخالد..

بدأ الموظف بتقليب الأوراق الصفراء التي أمامه ثم قال...

- انتظر قليلًا في غرفة الانتظار.. سيحضر الطبيب ويحدثك.. فقد انتظر هناك.

جررتُ قدماي كجنديٍ جريح، وأسندتُ ظهري على كرسي الانتظار وأنا شارد الذهنِ ومنتكش شعر رأسي من هولِ المصائبِ التي أتوقع حدوثها مع قدوم الطبيب.

مع بطءِ قدومِ الطبيب، أحسستُ أن الشيب بدأ يغزوني، فقدماي تهتزُ، وقلبي ينبضُ بسرعةٍ كبيرة وكأنه مجهدٌ من البقاءِ حيًا طوال تلك السنين القليلة، وأشعرُ أن شعري بدأ يتساقط.. يتساقطُ بلونٍ أبيض وظهرتُ تجاعيدُ القلقِ على محياي حين جاء صوتُ الطبيبِ مناديًا..

- هتان ... هتان.

قفزتُ مسرعًا إليه وأنا أردد..

- نعم، نعم أنا هنا.

صافحني وقال:

تعال معي إلى مكتبي، أريدُ أنا أخبركَ بأمر..

تشبثتُ بهِ وأنا أحاول معرفة هذا الأمر الهام الذي أكل الكثير من

أجزاء قلبي، ولكنهُ لا يتحدث ولا يقولُ شيئًا.. ولمَّ يتحدث وهو الخبير في
هذهِ الأمور ويعلمُ جيدًا ما يسببهُ المفجوعون من أخبارهِ في أورقا
المشفى من بكاءٍ وصراخ!

دخلتُ معه إلى مكتبهِ الكئيب، أغلق الباب وأمرني بالجلوس.. ثم
قال...

- هتان.. سأخبرك بأمر، ولكن أريدك أن تكون قويًا.

- قل.. قل أرجوك لم أعد أحتمل أكثر..

- قبل ساعتين يا هتان، وقع حادثُ دهسٍ في إحدى الطرق، وحي
أحضرت سيارة الإسعاف المصاب لدينا كان ينزف، وقد نزف الكثير من
الدماء في الطريق إلى المشفى، وللأسف لم نستطع إنقاذهُ، فقلبه الهرِم
لم يتحمل هذا النزيف، وعندما تفحصنا جيوب ثوبهِ وجدنا بعض من
البطاقات الرسمية التي تدل على اسمه.. محمد هتان الخالد...

يا الله، كيف يستطيعُ شخصٌ يداوي قلوب البشر أن يقتلها بهذ
الطريقةِ الباردة.

* * *

أبي، والروحُ تصرخُ ألَمًا على فُراقك، والجسدُ هزيلٌ من دو
استقامتك..

أبي، يا رجلًا أنا نصفهُ الثاني، وهو كلُ أرجائي..

أبي، يا من لا تقسو أبدًا، كيف قسيت على قلبي، ورحلت بعيدًا

عني..

أبي يا حبيبي، وقدوتي، وشمعتي وأجملُ وأكملُ وأطهرُ الرجال فـ
حياتي.. من أين آتي بأبٍ ثان، حتى أكبر بين يديهِ وأتعلّمُ من جميل
صنعهِ.

أبي، أرجوكَ عد.. عد ليومٍ واحد، لساعةٍ واحدة، لدقيقة يتيمة.. أرجوك
عد فعلى شفتي قبلة تريدُ الهبوط على قدمك، وقبلة أخرى تريدُ معانقة
رأسك..

يا أبي، مهما كبرتُ أنا، ومهما نضجتُ وتعلّمتُ وأحسنتُ التصرف
لن أستطيع من دونك التقدم، برحيلك وضعتني على خطٍ أعوج بعدما
كان يستقيمُ بنصائِحكَ.

يا أبي، أنتَ سماء، وغيومٌ والكثيرُ من الأصدقاء.. كيف أعيشُ الآ
من دونِ سمائي؟ وكيف تمطر السماء من دون غيومك.. وما حاجتي
للمطرِ من دون صديقٍ يحمي رأسي من قطراتهِ؟!

يا أبي، الكتابةُ إليك.. أصعبُ بكثير مما كتبتُه لفاتنةِ قلبي!

رحيلُ أبي كان رحيلًا مُرًا ومؤلمًا، فمن بعدهُ سيرفضُ رغباتي المراه
خوفًا عليّ، ومن بعدهُ سيصرخُ في أذني حين أتخلفُ عن جماعةِ المسجد
وصلةِ الرحمِ. من بعْدكَ يا أبي سيحرصُ على أن نجتمع كل مساء و إ
كان اجتماعنا على وجبةِ عشاء.. ومن سيخجلُ كثيرًا حين يسمعُ أمي
وهي تحكي لنا قصص زواجها وكيف أنها أحبت زوجها كثيرًا من بعد

أولِ ليلةِ لقاء.

كيف أحكي يا أبي مشهد رؤية جسدك البارد مُمددًا في ثلاجة؟ والصرخاتُ في داخلي ساخنةٌ وجافة.. كيف أعود من دونك، من دور جسدك وروحك.. وماذا أقول لأمي؟ زوجكِ مات؟! رأيتُ قبل قليلًا جسد من دونِ تلك الروح التي قضيتِ سنينكِ تعتنين بها وتحبين قربها وبعده وطيبتها وقسوتِها؟ وماذا أقول لجدتي الكبيرة؟ ابنُكِ الذي يقول لكِ دائمً «جعل الله يومي قبل يومكِ يا ست الحبايب» حين تشكين من أمراض الكبرِ قد استجاب الله دعاءهُ ورحل عنكِ وجعلكِ تبكين عليهِ بدلًا من أ يبكي عليكِ؟ وماذا أقول لجُمانة؟ وليمامة؟ أبوكُما الذي لا يرضى أن يرى الحزن على محياكُما قد رحل ورضي أن تحزنا الآن؟ وكيف أصبّرُ نفسي وأنا سأحملك بيديّ غدًا وأضعُكَ في التراب.. أضعُ أحب الناس لقلبي في التراب!

لم أستطع العودة للمنزلِ بعد أن ماتت كل مشاعري مع موتِ أبي كان ذلك الليلُ حالك السواد، ليلٌ جاء مُتربِصًا لقلبي، ليحزنهُ كثيرًا ويأ كثيرًا...

أخذتُ هاتفي بعد أن صار بكائي بدونِ دموع، بعد أن نضبت أنها عيني فلم يتبقّ منها شيئًا ليسقط.. بحثتُ في قائمة الأسماء على اس قريبٍ يستطيعُ احتوائي بحالةِ هذه، ولكن لم أجد غير صديقي خالد أها لهذهِ المهمة الحزينة.. فكم من صديق كان أقرب لنا ويفهم قلوبنا أكثر من

شخصٍ تربطنا معهُ صلةُ رحمٍ ودم!

خمس عشرة دقيقة كان كافيةً ليصل خالد سريعًا للمشفى رغم أنه لم يفهم من مكالمتي شيئًا غير أنني بالمشفى وأبكي!

دخل خالد للمشفى باحثًا عني، فوجدني جالسًا على الأرضِ، فلا كرسي يستطيعُ تحمل وزن صراخي ودمعي، أقبل علي وأخذني في حضنهِ وقال...

- ما بك.. ما بك يا هتان.. لما تبكي؟

ويا لصعوبةِ جواب هذا السؤال، ويا لتعاسةِ المجيب، ويا لخيبته الكبيرة.. ومع شهقاتي أجبتهُ..

- أبي.. آه يا خالد، أبي مات.. رحل....

ولم يملك خالد إلا الصمت، فهو يعلمُ جيدًا أن لا شيء في تلك اللحظة سيخفّف عني ويجفّف دمعي..

ساعدني على النهوض، وجعلني أتكئ على كتفيهِ واتجهنا لخارجِ المشفى.. حاول خالد كثيرًا أن يخفف عني بقولهِ «يا هتان، يا صديقي إنهُ قدر الله، وهو مكتوبٌ علينا جميعًا، أباك ليس بحاجةٍ لدموعك الآن، ولا لهذا الأنين.. هو بحاجةٍ لدعائك، فإن كنت تحبهُ حقًا إدع له، فهذا الشيء الوحيد الذي سينفعه»...

واستمر في الحديثِ والنصحِ حتى وصلنا إلى المنزلِ، وأنا خائف القلب مما قد يحصل في الداخل..

وقبل أن أودعه.. أمسك بيدي، وقال «يا هتان، أنت الآن رجل المنزل.. أنت الآن الأب الحنون على أفرادِ عائلتهِ.. أمك وأخواتُك وكل أفراد عائلتك سيكونون أقوياء إن كنت أن قويًا أمامهم.. حاول أن تتحدث مع أمك أولًا وتخبرها عما جرى، وبمجردِ معرفتها بالأمر سيعرفهُ الكل»...

وكان خالد صادقًا كثيرًا في هذا الجانب.. فبعدما دخلتُ للمنزلِ وجدتُ أمي تنتظرُ عودتي وهي تبكي في فناءِ المنزلِ، فخروجي بتلك الطريقة كان لا يبشرُ بخيرٍ أبدًا.. استقبلتني بحضنٍ كبيرٍ، وهي تسأل «أين أباكَ يا هتان، أخبرني أين هو، فقد حاولت الاتصال بهِ كثيرًا ولكنه لا يجيب.. سألتُكَ بالله يا ولدي، طمئن قلبي.. قل لي إنه بخير»...

لم أتمالك نفسي، فسقطتُ على قدميها وبصوتٍ كسيفٍ مزق قلبها.. «رحل أبي... رحل يا أمي...».

* * *

(5)

When I am alone with God, I see that God is really all I have. All that matters. All that will last. At these times I realize that the magnitude of what I have is incomprehensible. Usually I cry for the (sheer joy of it. Not tears of defeat, but rather tears of gratitude.»(2

لا شيء يبقى.. ولا شيء يرحل..

لا شيء من الأفراح يبقى، ولا شيء من الأحزانِ يرحل..

أشعرُ بأنني عصفور، ولكن من دون جناحين.. أشعرُ بأنني شجرةٌ ولكن من دونِ أوراق.. أشعرُ بأنني لا زِلتُ على قيدِ الحياة، ولكن رحيل أبي جعل حياتي سوداء.. سوداء قاتلة..

أقضي يومي مُحاوِلًا تجنب رؤية أمي، ورؤية الحزنِ العقيمِ الساكن في عينيها.. أتجنبُ رؤيتها لكي لا تبكي حين ترى صورة أبي المرسومة على وجهي، فأنا ذلك الاقتباسُ الصغيرُ من وسامتهِ، وأنا من يمتلك نبرة صوتٍ قد تخيلُ للسامعِ بأن ذلك الصوت أتى من حنجرةِ أبي..

مسؤوليةٌ كبيرةٌ وقعت على عاتقي، حتى أصبحتُ أشعرُ بأنني لستُ لنفسي.. ففي ليلةٍ وضُحاها، أصبحتُ أبًا بديلًا لطفلتين كنتُ سابقًا أخاهما الكبير فقط.. أما الآن فأنا من يجبُ عليهِ توفير طلباتهما والسهر على راحتهما، وقضاء باقي العمر بجانبهما إلى أن يأتي يومٌ مُحزنٌ ومُفرحٌ أسلّمهما فيه لأزواجهما..

تلك المسؤولية الكبيرة جعلتني أنسى ما كنتُ أبنيهِ لنفسي وما كنتُ أطمحُ لتحقيقهِ..

يجبُ عليّ الآن ترك أوراقِ دراستي التي أعددتها في مجالِ التنمية الاجتماعية، أملًا في الحصولِ على درجة الماجستير التي كانت أقل طموحاتي وأجمل أمنياتي أبي.. يجبُ عليّ الآن البحث عن عملٍ نافعٍ لأستطيع تنمية هذهِ الأسرة الحزينة، وتأمين مصدرٍ رزقٍ كريمٍ لها...

استودعت الله طموحي ثم جمعتُ أوراق بحوثي التي قضيتُ م

يقاربُ السنتين أعمل عليها، ووضعتُها في خزانةٍ صغيرةٍ، وبدّلتُها بملف
أخضر اللونِ، كان يلعنهُ كثيرًا صديقي خالد في كلِ مرةٍ يرفض فيها
ويعود خائبًا من دونِ فرصةٍ للعملِ.

فها أنا ذلك الطفل المدلل الذي يعيشُ في رغدٍ دون الحاجةِ لعم
أطرقُ أبواب الوزاراتِ والمؤسساتِ وأبتسمُ كثيرًا لهؤلاء المسؤولين
قبولِ الموظفين رغم جفافِ أسلوبهم الحسن، ورغم نظراتهم التي تقول ل
«أنت لا شيء!».

أستيقظُ متفائِلًا في الصباحِ، وأعود خائبًا في المساءِ.. أعود مُطأطِ
الرأسِ، خالي اليدينِ..

عودتي بتلك الهيئة كانت تخبرُ عائلتي بأننا قد نمرُ بمرحلةٍ يجب
علينا فيها أن نقتصد كثيرًا، وأن نتكاتف إلى أن يأتي فرجُ الرزاق
الكريم..

الأيامُ تجري، وفرصةُ العملِ لا تأتي.. أصبحتُ أعيشُ في قلقٍ كبير
وخوفٍ من المستقبلِ ومما قد يأتي بهِ.. حتى وضعت أمي حدًا لهذ
القلق، فبمكالمةٍ لشقيقها الأكبر استطاعت أن تؤمّن لي وظيفةً مرموقةً في
إحدى الشركاتِ الكبيرة التي كان يديرُها خالي..

وكأنها بفعلِها هذا تقول نحنُ مجتمعٌ لا يستطيعُ أن يعيش بدون
وساطةٍ ترفعُنا من أسفلِ القائمةِ إلى أعلاها!

ورغمُ أنني كنتُ أرفضُ وبشدةٍ هذا المبدأ الذي يشوّهُ مجمعتنا،

أنني كنتُ مُجبرًا على وضعِ كبريائي جانبًا من أجلِ هذهِ العائلة التي لا
أدري إلى أني ستأخذها الأيام وقبولِ هذهِ الفرصة اللامتكررة..

وفي صباح اليوم التالي، تهندمتُ وتعطرتُ وأمسكتُ بملف
الأخضر، ثم هممتُ بالخروجِ مبكرًا علَّ وعسى أن أنال إعجاب مدير
الشركة الذي أدعوهُ بخالي وأضمن تلك الوظيفة.. وصلتُ للشركة
واضطررتُ أن أنتظر ما يقاربُ الساعة والنصف أمام بوابتِها، لأن
حماسي أنساني أن وقت العمل لا يبدأ إلا في الساعةِ التاسعة..

تمضي الدقائقِ سريعًا، ويأتي حارسُ الشركةِ الفقير ليفتح أبواب
الرزقِ للعاملين.. أحمِلُ نفسي وأتجهُ للطابقِ رقم ثلاثة بعد العشرة حيث
يقبعُ مكتبُ خالي، واستأذنتُ بالدخولِ ودخلتُ عليهِ.. ويا ليتني لم أدخ
لذلك الرجل اللئيم، فما وجدتُ منهُ إلا كلماتٍ مبطنة، كلماتٍ كان يقصد
بها التقليل من قدرِ أبي الذي رفض أن يضع جهدهُ معهُ لينشئا هذه
الشركةِ معًا وفضّل أن يعيش حُرًا وقريبًا من أبنائهِ ويكتفي بالعمل
البسيط الذي يوفّرُ لهم لقمة عيشٍ كريمة. لا أريدُ أن أذكر ما قالهُ لكي
لا أغضب وأبلع غصة غضبي التي ابتلعتُها ذاك اليوم من أجلِ عائلتي
فقط. أنهى كلماتهِ اللئيمة ثم أمرني بأن أُباشر بالعملِ غدًا..

كان من المفترضِ أن أخرج سعيدًا، سعيدًا بتلك الوظيفة التي يحلم
بها الآلاف من العاطلين في بلدي، ولكن حقد ذلك الرجل أخرجني كئيبًا،
فكيف أرضى أن أعمل تحت رايةِ رجلٍ لا زال يكُنُّ الحقد لرجلٍ دُفن تحت

التراب..

وفي المنزلِ كانت أمي تنتظرُ عودتي لترى ابتسامة السعادةِ على ثغري. أقبلت عليّ وبادرتني الحديث:

- أعطني البشرى يا ولدي.

وبصوتٍ مقهورٍ أجبتُها:

- حصلتُ على الوظيفةِ يا أمي.. غدًا يكون أول أيامِ عملي بإذن الله..

تغيّرت ملامحُ وجهِها المنيرِ ورددت خلفي..

- بإذن الله.. بإذن الله يا هتان.

وقبل أن أصعد لغرفتي، عادت إليّ وأمسكت بيدي.. ثم قالت:

- يا حبيبي، أعلمُ أن لقائك بخالك لم يجر على نحوٍ جيد، عيناكَ تقول هذا.. ولكن يا هتان، تعلم ما نمرُ بهِ الآن، فاصطبر يا بُني من أجلي ومن أجلي جُمانة ويمامة..

قبّلتُ رأسها وطمأنتُ قلبها بقولي:

- يا أم هتان، من أجلِ الجنةِ التي وضعها الله تحت قدميكِ أفعل المستحيل إن أردتِ.

فابتسمت جدتي، وصعدتُ أنا لغرفتي..

ألقيتُ جسدي على السرير، وجسدي وحده من كان على السرير، أما روحي فكانت تحلّق في سماءِ الأسئلةِ، لما يحدثُ كل هذا لي؟ أي بلاء هذا الذي يجعلُني أخفضُ كبريائي لرجلٍ أحمق؟ وإلى أين سيأخُذني

المستقبل؟ أبَقِي لأيامي فرح؟ أم الحزن سيكون أقرب أصدقائي؟ وسأثملُ بالقهرِ فيما تبقّى من حياتي؟

يا رب لم أكن هذا ما أريدهُ، ولم يكن هذا سقف كفايتي وطموحي. لا أريدُ أن أكون إنسانًا عاديًا، يعملُ ويأكلُ ويصلي ثم ينام. أريدُ أن أضع بصمةً لي على جبينِ هذا الكوكبِ، أريدُ أن أكون نجمةً لا تموتُ في سماءِ هذا الكونِ. أريدُ أن أكون مختلفًا.. مختلفًا فقط.

وفي غمرةِ غرقي في بحرِ المستقبلِ، جاء رنةُ هاتفي حاملةً معها تهنئةً قصيرةً على شكلِ رسالةٍ قصيرة.

مددتُ يدي لهاتفي الملقى على الطاولةِ، وقرأتُ تلك الرسالة من دون أن أُعير لها أي اهتمامٍ، فهي جاءت من رقمٍ مجهولٍ لا أعرفُ صاحبهُ فظننتُ أن أحد الأقاربِ قد علم بحصولي على تلك الوظيفة بطريقةٍ ما..

أعدتُ هاتفي لمكانهِ، ثم مِتُ موتةً صغرى تمنيتُها لو كانت كُبرى..

* * *

«الله أكبر.. الله أكبر...».

صحوتُ على صوتِ الأذانِ، وأنا لا أعرفُ أذان أيّ صلاةٍ هو. غادرتُ سريري، واتجهتُ نحو الطابقِ السفلي حيثُ وجدتُ جدتي تستمِعُ لإذاعة القرآنِ كما تفعلُ دائمًا.. جلستُ بجانبها فأطفأت مُسجلتها، وبدأت تعاتبُني على نومي والصلاواتِ التي فاتتني وأنا نائم، فنظرتُ إليها بعينٍ حزينة وقلتُ:

- جدتي.. هتان ابنُكِ وحبيبُكِ سيبدأ أول أيامِ عملهِ غدًا وأنتِ لا
تهنئيهِ وتعاتبينهُ أيضًا!

تغيّرت نبرةُ صوتِها حتى امتلأت بالحنانِ وأجابتني..

- والله سعيدةٌ من أجلكَ يا هتان، ولم أكن أقصد أن أكدّر صوفا
بكلامي، ولكن تأكد أن الرزق يأتي من الله لا من العمل، فاحرص على
صلاتك أولًا..

ثم ابتسمت وقالت:

- والآن تعال أعطيك قبلةً بمناسبة حصولك على هذهِ الوظيفة يا
هتان..

اقتربتُ منها وقبَّلتُ رأسها فغافلتني وطبعت قبلةً بيضاء على جبيني
أحسستُ بعدها بنورٍ يخرجُ من جبيني وكأنه صار قنديلًا مضيئًا
استأذنتُ بالخروجِ وقبل أن أتركَ مكاني همست جدتي في أذني قائلةً:

- هتان.. إن ابنة عمك حنين ترسل لكَ سلامها، وقد أخذت مني رق
هاتفكَ وأظنُّ أنها أرادت أن ترسل لكَ تهنئتها...

لا شعوريًا أمسكتُ بهاتفي، وبدأتُ أبحثُ عن تلك الرسالة.. وجدتها.
لا شك أنها منكِ يا حنيني، ولكني أريدُ التأكد أكثر.. فقلتُ لجدتي ببرو
مُصطنع:

- سلمها الله وعافاها.. هل تعرفين بما ينتهي رقمُها يا أمي الكبيرة..

- لا أعلم يا هتان، ولكن أنظر لدفتر الأرقام وستجدُ اسمها مع رقمِ

هاتفها مدونٌ في بدايتهِ.. تجدهُ هناك بقربِ الهاتف..

فهمستَ روحي إليَّ قائلةً..

- يا مغفل، رقمها مدونٌ في ذلك الدفتر الصغير العتيق الذي تراه أمامك كل يوم فلا تلقي لهُ بالًا!

وصدّقت روحي بهمسِها، فتلك الأشياء الصغيرة جدًا التي لا نهتمُ بها ولا نبالي بوجودها، قد تكتنزُ أسبابًا للسعادةِ التي نفتقدُها ولا نجدُها في أوضحِ أمورِ حياتنا.

وكم تمنيتُ تقبيل صفحاتِ ذلك الدفتر حينما قطع شكي باليقين، بأن تلك الرسالة نسجتها يداكِ، إلا أن نظراتِ جدتي تجاهي منعت عنا قُبلاتي.

تلك الكلمات المستهلكة التي يستخدمها الجميع في مناسبةٍ ما، سواء كانت سعيدة أو حزينة، نشعرُ أنها مستحدثة ولم تُكتب من قبل حينما تأتي من الحبيب فقط.. هكذا شعرتُ بكلماتِ رسالتكِ، رغم أنها عادية جدًا، ولكن من كتبها لم يكن بالشخصِ العادي في قلبي.. قرأتُها مرارًا وتكرارًا، وفي كلِ قراءة أتخيلُ ملامح وجهكِ وأنتِ تكتبينها..

«مباركٌ لكَ يا أخي حصولك على هذه الوظيفة.. سعدتُ بسماعِ هذا الخبر، وفّقك الله دائمًا»..

كانت رسالةً جميلةً جدًا، وتبعثُ في جسدي الراحة، إلا أن هناك كلمةً واحدة فقط لم تعجبني إطلاقًا، وأفسدت عليَّ استمتاعي...


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

«يا أخي!».

أنا أحبُّكِ وأنتِ تدعونني بـ «أخي!» أنا أريدُكِ وأريدُ تذوق شفتي
وأنتَ تضعينني في منزلةِ الأخ! ألم تسمعي نبض قلبي حين كُنتِ قريب
جدًا مني؟ ألم تشعري بانجذابي نحوكِ وكيف كنتُ سعيدًا برؤيتُكِ! ك
كنتِ قاسيةً في تلك الرسالة، فكيف لي أن أقول لكِ أحبُّكِ وأنا الآ
أخاكِ!

ومنذُ أن علمتُ بأن تلك الرسالة أتت منكِ وأنا أمشي بجسدٍ بلا عقلٍ
حائرًا ومشغول البالِ في البحثِ عن طريقةٍ مناسبةٍ للردِ على رسالتك
فأنا لا أريدُها أن تعبر كأي رسالةٍ لطيفة، بل أريدُها أن تكون بداية
رسائل طويلة تجمعني بكِ وتقرّبُني من قلبكِ، فالفرصة لا تأتي إلا مر
واحدة في العمرِ وأنتِ من بدأ بإلقاء جسورِ الوصولِ إلى جزيرةِ قلبكِ..

كان الطريقُ إليكِ صعبًا جدًا، فليس هناك من طريقةٍ أستطيعُ مر
خلالها اقتحام قلبكِ بلطفٍ دون أن توصِدي أبوابهُ أمامي، وليس هنا
من أمرٍ أستطيعُ من خلالهِ جذبكِ للحديثِ معي.. كان علي أن أختر
شيئًا ما قادرًا على البقاءِ بيننا لنتحدث عنه طويلًا دون أن نملّ م
الحديثِ عنه.

خرجتُ من المنزلِ، وأحرقتُ علبة سجائرٍ كاملة واحتسيتُ كوبين م
القهوةِ السوداء المُرة وأنا أفكرُ وأخططُ، حتى انتهى بي سرحاني
الطويل بكتابةِ رسالةٍ حزينة دعيتُ الله فيها أن تحزني على كاتِبِه

وتواسيهِ بقربٍ منكِ..

«سعيدٌ بسعادتكِ لي يا حنينِ رغم أنني لم أشعر أبدًا بالسعادةِ حين
قبلتُ هذهِ الوظيفة التي أتت على شكلِ صدقة».

وانتظرتُ ردًا منكِ، ردًا يسعدُ قلبي حقًا، إلى أن انتظاري طال كثيرًا
حتى فقدتُ الأمل بوصولِ رسالةٍ أخرى منكِ..

* * *

إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والساعة الثالثة من
الانتظار.. المنزلُ خالٍ من أي علامات الحياة، غير أن خطواتي في
ممراتهِ تقلقُ المختبئات في غرفهنّ.

أبحثُ عن سعادتي في هذا الليلِ المعتمِ، أتخيلُها تأتي منكِ وحدا
حتى أتذكرُ أن هناك ربًّا كريمًا يتواضعُ وينزل من سابعِ سماءٍ إلى
سماءِ الدنيا الفانية ليجيب دعواتِ القلوبِ الحزينة ويعطي السائل
ويخففُ من آلام المساكين، فأتوضأ وألقي بسجادةِ صلاتي على الأرض
وأكبّرُ وأخشعُ في صلاةِ وتري، حتى يأتي وقتُ الدعاءِ فأرفعُ يديَّ عاليً
مُتضرعًا للربِ بأن يحيي من جديدٍ قلبي ويهبهُ سعادةً وفرحًا ويخفّف
عنهُ وطأة الحزنِ الكريهِ.

وما إن انتهيتُ من صلاتي ورفعتُ سجادتي عن الأرضِ حتى جاء
إجابةُ اللهِ لدعائي. جاءت لطيفةً ورقيقةً كرقةِ أناملكِ التي كتبت لي تلك
الرسالة الجديدة التي جعلتني أبتسمُ كطفلٍ بريءٍ لا يفقهُ العِتاب

الجميل.

«رسالةٌ واردة»

«أعتذر على تأخري بالردِ، كُنتُ نائمةً.. ولكن لماذا لا تفرحُ يا هتان

أخبرني عن أسبابِ حُزنِك».

وبسرعةٍ فائقةٍ رددت على رسالتكِ..

«رسالةٌ صادرة»

«لا تُقلقي نفسكِ معي يا حنين، أكملي نومكِ وأحلامًا سعيد

أتمناها لكِ».

«رسالةٌ واردة»

«لا لن أنام حتى تقول لي لما أنتَ حزين! ألم تكن تريدُ فرصةِ العمل

هذهِ وبشدة؟ ماذا تغيّر الآن؟».

وكم أحببتُ إصراركِ وشغفكِ على معرفةِ أسبابِ حزني..

«رسالةٌ صادرة»

«لم يتغير شيء يا حنين، غير أني لم أحصل على هذهِ الفرصة

لكفاءتي وامتيازي.. بل حصلت عليها كمعونةٍ من قريبٍ لن يحب حتى

رؤية وجهي أمامه في كلِ صباح».

«رسالةٌ واردة»

«أنتَ تحزنُ نفسك بنفسك يا هتان! لا تنظرُ لأمورِ الحياة بهذ

الطريقة السوداء، أنجب من هذهِ الفرصة فرصةً أخرى تعيدُ بها بناء

علاقتك بخالك فتكسبهُ في صفّكَ وتبني من خلالهِ مستقبلكَ».

وبسخريةٍ أجبتُ رسالتكِ..

«رسالةٌ صادرة»

«لم أعلم أنكِ مستشارةٌ اجتماعيةٌ من قبل! هههههه»!

فأجبتيني ساخرةً مني..

«رسالةٌ واردة»

«ولم أعلم أنكَ صغيرُ العقلِ هكذا! هههههه»!

«رسالةٌ صادرة»

«لستُ بصغيرِ عقلٍ يا حكيمة! ولكن الحزن هو من يسلبُ قوتي ويرميني بموجهِ على شواطئ اليأسِ».

«رسالةٌ واردة»

«هيا يا هتان، لا تقل هكذا.. أعرفُ أنكَ رجل، والرجالُ لا تيأسو بسهولة، أطرد هذا الشيطان الذي يلعبُ بعقلكَ وكُن كما أنت، كما عرفت عنك».

وبعد هذهِ الرسالة، اعترتني دهشةٌ كبيرة، وتساؤلاتٌ كثيرة، «كما عرفتُ عنك»! وماذا تعرفين عني يا حنيني؟ هل كُنتِ تبحثين عن تفاصيلي كما كنتُ أبحثُ عن تفاصيلك؟ وهل كُنتِ مُهتمةً بيَّ كم أنا مهتمٌ بأمركِ؟ أنتِ تغوينني الآن بهذا الاهتمام، أنتِ تكبرين في داخلي أكثر وأكثر، وتعطينني المجال لأحبّكِ أكثر. كان لابد أن أسألكِ عم

تعرفينهُ عني، عن الصورة التي رسمتيها في خيالكِ عني، وإن كانت تلك المعرفة جاءت من باب الاهتمام أم أنها معرفةٌ من باب الفضول لا أكثر، ولكن رسالة وداعك جاءت سريعةً تطلبُ مني النوم وإراحة بالي من هذه الأفكار والتساؤلات، فأجبتُ طلبكِ الصغير، وودعنا بعضنا البعض بـ «تصبح على خير» و«وأنتِ من أهلهِ».

* * *

(6)

صدّقي أو لا تصدّقي، لا أملكُ سببًا مقنعًا لأكتب لكِ، فلا شيء سيعيدُكِ إلى حدودِ مملكتي، ولا شيء سيغيّرُ من تعرجاتِ القدرِ التي أخذتكِ بعيدًا عن طريقي.

ولكني لا زلتُ أكتب، لا مباليًا بالأسبابِ، ولا مهتمًا بالشكلِ الذي ستنتهي عليهِ كتاباتي.. أريدُ فقط مراوغة الحنين الذي يجري كطفلٍ حافي القدمين في صدري، والتغلب على حزني حين أصنعُ منكِ أنثى أخرى تنامُ في وسط أوراقي.. حتى لا أشتاقُ لها كثيرًا، وأُقَبلها كثيرًا حينما أشاء.. حتى ولو كانت قُبلاتي على أوراقٍ صماء!

صدّقي أو لا تصدّقي، منذُ أن أحببتُكِ وأنتِ كل أفراحي وأجمل ابتساماتي.. كنتِ الوحيدة القادرة على إضحاكي بلا صوتٍ وبلا كلماتٍ.. قربُكَ كان مصدر السعادةِ لأيامي، ورسائلُكِ كانت أجمل رسائل الحبِ والزمان..

ويجوزُ لكِ هُنا أن تصدّقي فقط، أنكِ هبةُ الله لقلبي الحزين ولروحه
الشقية، أنكِ نعمةُ الله لحياتي الفقيرة وأنكِ كنزُ القناعةِ الذي اكتفيتُ
عن البشرِ جميعًا.

فأنتِ واحدتي التي أخرجتني من كهفِ حزني، وواحدتي التي
قوّست شفتاي للأعلى بعدما أرهقها كثيرًا انحناؤها للأسفل..

كُنتِ قادرةً على إضحاكي وإبهاجي وإخراجي من دائرة الحزن
ببساطةٍ وعفويةٍ. كُنتِ الوحيدة التي تعرف طريقها جيدًا إلى قلبي من
دون أن تتوه أو أن تستعين بدليلٍ.

معكِ عرفتُ أن سعادتي لا تتطلبُ أسبابًا كثيرة، فقط ابتسامةً منكِ أ
رسالةً قصيرة تحمل معها تصبيحةً أو تمسيةً كانت كافيةً بأن تجعل
قلبي يبتسمُ وينبضُ فرحًا.

معكِ كان للحبِ لون آخر، وشكل آخر، فأنتِ أنثى لا تتكرر، وبد
يظهرُ في أولِ النهارِ ومع غروبِ الشمسِ ولا يتقيدُ بأيامِ التقويمِ. حُ
جعلني أنسى بساطتي، وجعلني أرتدي ألوان العشقِ، جعلني أكون
شاعرًا يتغزلُ بخصركِ، ومُفكّرًا أتعمقُ في تفاصيلِ روعةِ صُنعِكِ. حب
خلق قوانين جديدة للزمنِ، فالساعةُ بقربكِ دقيقةٌ، واليومُ في غيابكِ دهرٌ
وتلك الثواني التي تضحكين فيها صارت مئة عامٍ من السعادةِ في
قوانين زمني!

أحببتُكِ، وأحببتُ تفاصيلَكِ كلها.. أحببتُ خجلكِ وكبريائَكِ وغرو

وشموخكِ وتواضعكِ. أحببتُ اهتمامكِ الذي يطوقُني ويعيدُ تركيبي م
جديدٍ لأصبح كما يشتهي قلبُكِ.

تأتين في صباحي كحمامةٍ سلامٍ تقفُ على كتفي وتهمس لي أجمل
الكلماتِ، وتختبئين في حقيبةِ أعمالي لتشغليني بالحبِ وتجعلني نهاري
يمتلئ بكِ وحدكِ. وإن حل ظلام ليلي، كُنتِ القنديل الذي ينيرُ لي سقف
السهر، والوسائد التي تنامُ عليها همومي دون أن تُفيق.

أبحرنا سويًا لحدودٍ خارجةٍ عن وطنِ الصداقة، حتى تحدثنا عن
الحبِ وعن آهاتهِ وأحلامهِ ووعودهِ الكاذبة البيضاء، وقُلتِ أنكِ لم تحب
يومًا، وأنكِ لا تريدين أن تحبي يومًا، ونسيتِ أننا في الحبِ مسيّرين
مخيّرين، وأن الحب لا يعرفُ آداب الاستئذانِ.

وقلتُ لكِ أن الحب يشبهُ المعركة إلى حدٍ ما، تحتاج لأن تُعِد خططاً
استراتيجيةً تجعلك تتفوق على منافسك.. هو معركةٌ ولكن بلا عدوٍ،
منافسك هو حبيبك، وهو من تريد أن تغلبهُ ليقع في أسر قلبكَ دون أن
يطالب يومًا بحريتهِ..

وما أجملُ تلك السجون التي تكون في الصدور..

وفي معركة الحب، تتغيرُ مفاهيمُ الحرب كلها، فبدلًا من أن تنشر
الخوف في صفوف منافسك، تزرعُ شجرةً من الأمانِ لتنمو بين أضلاع
من تحب، وبدلًا من استخدام السهام القاتلة، ترمي عليهِ وابلًا م
القُبلاتِ القاتلة! البنادقُ والقنابلُ وحتى الدبابات المقاتلة تكون على شك

أخر، شكلٍ أرقُّ وأجمل، كالهمساتِ الساحرة، والابتساماتِ الجذابـ
والقصائدِ الغاوية!

وفي معركةِ حبُّكِ كنتُ أنا الغازي على أرضِ قلبكِ، اقتحمتها بكلما
والقليلُ القليل فقط من الأشعارِ..

لم تكوني سهلة الإيقاعِ والأسرِ، كُنتِ شامخةً كرايةِ حربٍ لم تذلُ يوهٔ
بالهزيمةِ

كُنتِ عالية الكبرياء كملكةٍ لم يخذلها يومًا شعبُها الوفي..

ولكنكِ أنثى، والإناثُ ناقصاتُ عقلٍ!

رُبما خلقكن الله هكذا لتقعنَ في فخِ حُبنا نحنُ معشر الرجال، وربما
لو كنتّن كاملاتُ عقلٍ لم تغرم يومًا فتاة!

وعلى نقيضِ نقصكنّ، خُلِقنا نحن الرجال بعقولٍ كاملة، من أجلِ أ
نستوعب فكرة الحب والغرام، تلك الفكرة التي تستطيعُ أيُّ أنثى ناقصةُ
عقلٍ فهمها واستيعاب أبعادها أكثر من أيِّ رجُلٍ ذي عقلٍ كاملٍ!

وأخبرتُكِ أن صاحبات تلك العقول الناقصة التي تعاهدُ نفسها قبل
أن تعاهد حبيبها على الوفاء، على أن يكون كل زفيرٍ أمنيةً باستنشاق
عطر الحبيب في الشهيقِ القادم، وعلى أن تكون كل ابتسامةٍ دمعةً في
غيابِ المعشوقِ ... يا سيدتي تلك العقول الناقصة - ورب العباد - أكمل
من عقلِ رجلٍ يبتسمُ ليغوي امرأةً في الصباح، ويثملُ بشفاهِ امرأ
أخرى بعد زوالِ شفقِ الغروب...

تلك الكلمات كانت أول اختبارٍ أعددتيهِ لي في مدرسةِ حُبكِ، وكانت أولى المفاوضات بين قلبي وقلبكِ على طاولةِ الحبِ.. فبعد أن نفذ صبري منكِ ومن الليالي التي أهيمُ فيها بكِ، لم أجد غير أسلوبِ المفاجأة منهجًا لأعترف لكِ بحبُّكِ الذي ينمو في قلبي كشريانٍ رئيسيٍ يضخ دما السعادة في بدني..

«أحبُّكِ».. هكذا أرسلتُ أول طيور حُبي على شكلِ رسالةٍ قصير هبطت على عُشِ قلبكِ النائم. رسالةٌ قصيرةٌ حملت معها أمنياتي الطوي المختصرة في أصدقِ كلماتِ الحب وأقصرِ كتابات العشقِ..

فجاء ردُكِ بطيءً كسلحفاةٍ لا تعرفُ إلى أين هي ذاهبة، ولكنهُ أخيرً جاء رغمَ الخوفِ العظيمِ الذي كان يحملهُ بين كلماتهِ..

«هتان! أظنُ أن رسالتك وصلت لي بالخطأ!».

وفي لحظةِ شجاعةٍ أجبتكِ..

«لا يا حنين، رسالتي وصلت للشخصِ المقصود!».

ففي لحظاتِ الحب الأولى، نحتاجُ للشجاعة، نحتاجُ لأن نصر ونعترف بالحبِ دون مبالاةٍ بردودِ أفعالِ من نحبهم، فتلك اللحظات ا تحتملُ أي افتراضات.. إما أبيضٌ سعيدٌ.. أو أسودٌ تعيسٌ!

وكم تمنيتُ أن يكون حظي في ليلةِ الاعترافِ أبيضًا فقط، فلا بداي أجمل من البياض..

ساعةٌ كاملةٌ مرت، ولا جواب منكِ أتى ليريحُ قلبي القلِق. رسال

جديدةٌ أخرى بدأتُ بكتابتها بعد أن طال انتظاري، رسالةٌ جديدةٌ أصِفُ
لكِ فيها حبي لعينيكِ، وأخبركِ فيها كم من نبضةٍ أطلقها قلبي حين كُنت
منفردًا بكِ في تلك الجولة الرقيقة.. وكم كانت تلك الرسالة أقصر من أن
تحتوي حُبي لكِ، فتبعتها ثانية تحملُ وعودًا كثيرة لا أزالُ أريدُ الإيفا
بها رغم بردِ غيابكِ الذي يقرصني بمجردِ التفكيرِ بكِ الآن وبتلك الوعود.
ثم رسالة ثالثة تخبرُكِ كيف أني أحببتُ وجودكِ وأحببتُ تلك الليالي الت
نقضيها سويًا في الكتابةِ لبعضنا البعض وكيف أنني كنتُ أخفي هذا
الحب عنكِ وأظهرهُ لكِ على طريقةِ الصداقةِ لكي لا تبتعدين ولا تجزعي
من هذا الحب، تلتها رابعة، إلى وصلتُ إلى الخامسة فوضعتُ فيها آخر
آمالي، وآخر محاولاتي..

ولا أخفيكِ بأنني امتطيت غيمةً من السعادةِ عندما جاءت أسئلتُ
تريدُ معرفة المزيد عن هذا الحب الذي هطل فجأةً عليكِ دون أن تشعُري
بسحابهِ المتراكمِ في سمائكِ..

«رسالةٌ واردة»

كيف؟ ولما؟ ولما أنا! يا هتان أنتَ ترعبُ قلبي بهذا الحب المفاجئ
وتزلزلُ كياني بهذهِ الكلماتِ الثملِةِ حُبًا!

«رسالةٌ صادرة»

يا حنين، كيف أحببتُكِ.. أمممم لا أعلمُ حقًا! ولكن عينيكِ كانت أجم
كمين وقعتُ فيهِ.. لماذا؟ أممم، لا أعلمُ أيضًا! ولكني تعبتُ من الإبد

وأريدُ الوقف على مرسى شاطئكِ..

لما أنتِ؟ ... لا أعلم والله.. ولكني أحبُّكِ، ويفعل الله ما يشاء!

«رسالةٌ واردة»

تعبت من الإبحار! وتريدُ الوقوف على مرسى شاطئي! لا شكَ أنك كنت سباحًا ماهرًا! ومرساي محطةُ راحةٍ لكَ من العوم!

«رسالةٌ صادرة»

ما أذكاكِ وما أغباكِ.. لو أني وجدتُ حورًا في البحرِ لما قصد مرساكِ، ولو أني وجدتُ الراحة بين الموجِ لما تمنيتُ الاستلقاء على شواطِئكِ!

«رسالةٌ واردة»

هتان أنا لا أفهم ما تقولهُ! لا أفهم كلمة «أحبُّكِ» تلك التي جاءت على غفلةٍ من قلبي.. لا أفهمك! لا أفهم كيف تريدُ أن تحب بكماء!

«رسالةٌ صادرة»

أنتِ لستِ ببكماء.. أنتِ «بكِ ماء» أنقى من أنهار الكلام، وأرفعُ من شعرِ الغرام.. وأنا راضي عن قلبي حين أحبكِ دون أن يلتفت لعيب خَلقكِ!

«رسالةٌ واردة»

تريدُني أن أصدّقك؟ أن أفرح بهذا الحب كأي فتاةٍ عاديةٍ أخرى؟ حسنًا أنا لستُ بفتاةٍ عاديةٍ.. أنا حنين التي لا تعرف أبدًا كيف تنطق

«أحبك»!

«رسالةٌ صادرة»

أن لا أريدُكِ أن تصدقيني فقط، أنا أريدُكِ أن تؤمني بهذا الحب الذي يكبرُ في داخلي يومًا بعد يومٍ، أريدُكِ أن تشعري بهِ وأن تعطيه فرصةً لينتقل من قمةِ قلبي إلى مدينةِ قلبكِ ويتحول من حالةِ الحبِ من طرفٍ واحدٍ إلى حالةِ التبادل..

وانقضت ساعاتُ الليلِ ونحن نكتبُ لبعضنا البعض، ونناقشُ قضية حبي لكِ وخوفَكِ من أن يكون هذا الحب زائفًا أو نزوة رجلٍ حزينٍ لم يجد غيركِ ليحبها، حتى جاء صوت الحقِ بـ «الصلاةُ خيرٌ من النوم» فركلنا هواتفنا بعيدًا وعقدنا هُدنةً بين قلبينا بأن نعود للمناقشةِ الحب مجددًا رغم عدمِ اقتناعِ وجدانكِ بهِ.

تطهّرنا، وخضعنا لربِ العباد، وكنتِ أول دعائي، وكنتُ أجمل دعائك همستُ بـ «يا رب، اجعلها لي» وهمستِ بـ «يا رب، جنّبني حبهُ إن كان كاذبًا»...

وفي السماءِ كانت دعواتنا تتسابقُ، ولا نعلمُ أيُهما ستُستجابُ.

* * *

(7)

هكذا أحببتُكِ..

أولًا:

كانت جميلة هي صدفةُ لقائكِ.. ظننتُ أنكِ مجرد عابرة تلقي البسمة على الشفاهِ الحزينة.. ظننتُ أنكِ غريبة وسترحل قريبًا..

ثانيًا:

كُنتِ ماكرةً في الأولى.. فأصبحتِ الصديق الذي أحبُ حديثهُ ويبتهِجُ القلبُ بقربهِ..

ثالثًا:

قمتِ باحتلالِ أيامي، وتمكّنتِ من جعلِ يومي جميلًا بقربكِ.. ومظلمًا من دونِ شمسِ جبينكِ

رابعًا:

لا أعلمُ حقًا ماذا حدث في الرابعة.. ولكن قلبي أصبح يريدُكِ كثيرًا!

خامسًا:

ولأولِ مرةٍ أشتهي تقبيلكِ حين تضحكين!

سادِسًا:

سهرتُ الليل أفكرُ فيكِ.. واستيقظتُ مبتسمًا لأنكِ كُنتِ أول أفكاري..

سابعًا:

أحبُّكِ.. خرجت هكذا من دونِ تحضيرٍ أو تمرين.. خرجت صادقة فكانت ذاتَ لحنٍ جميل..

ثامنًا:

احمرت وجنتاكِ، وبدأت ترتعِشُ ساقاكِ.. فغادرتي.. وشعرتُ بأنني ولأولِ مرةٍ منذُ أن التقيتُكِ - وحيد!

تاسعًا ولا عاشرًا لها:

«أحبُّكَ يا مجنون» جاءت محمولةً بين جناحيّ ملاكٍ لا يطير!

أحبُّكَ جاءت كمعزوفةٍ فرنسية الرنين، جاءت متخنةً بالغنجِ والدلِ اللذيذ. جاءت لتقسمني نصفين، نصفُ يحبُّكِ، ونصفُ يحيا بحبُّكِ جاءت كشمسِ النهار المنتظر، مُشرقةً ودافئةً لا تغطيها غيومٌ ولا سحاب جاءت لتسرق هذا القلب النابض في صدري مني، وتجعلهُ ينبضُ ب ولكِ ومعكِ.

فبعد انتظارٍ طويل، كانتظارِ عقيمٍ يتمنى إنجاب طفلةٍ، وكانتظار حُبلى تتمنى أن ترى النائم في بطنِها، كتبتِها وأحسستي بها وبلذةِ كتابتِها. كتبتِ: «أحبُّكَ وأخافُكَ وأحترسُ من هذا الحب. كيف لك تجرفني معكَ وأنا التي تمشي حذرةً بجانب الجدران، كالإعصارِ المدّمر أنتَ، ضربتَ مدينة صدري وحملتني بين رياحكَ وعصرت قلبي حتى أمطر من بعد جفاف. يا مجنون الهوى.. أحبُّكَ وأنا في الحبِ مبتدئ ومفعولٍ بهِ وأنثاكَ، وأنتَ الخبرُ والفاعلُ وياءُ ملكيتي!» وقرأتُها أنا كطفل تعلّم للتوّ القراءة، ببطءٍ، كلمة بعد الأخرى، سطرًا بعد سطر، ودهشةً بعد دهشة، وإغماءة حبٍ لا أستطع أن أفيق بعدها ولن أفيق أبدًا..

فأرسلتُ إليكِ «أنتِ حنيني وسيدتي لما تبقى من أيامي. يا الله

أعجزُ عن الكتابةِ لكِ الآن، أعجزُ عن وصفِ بركانِ السعادةِ الذي تفجّ
بقلبي الآن.. انتظري، أعطني فرصةً أستعيدُ بها توازُني، وأنظمُ بها
دقاتِ قلبي».

وأجبتِ وأنتِ السعيدةَ بذلك الحب «يا مجنون، دعك من هذا الجنون
واكتبها لي فقط، اكتب «أحبُّكِ» لتدهشني وتزلزني وتطفئ نار شكي.
لن أكتبها فقط بل سأقول لكِ «أحبُّكِ» كخطابِ رئيسٍ بالانتخاباتِ فا
ككلمةِ حاكمٍ بعد الحروبِ منتصر، كنشيدٍ وطنيٍّ لبلادِ الحبِ، كتغريد
العصافير على أغصانِ الشجرِ، كغِناء المطربين في حفلٍ بالجمهور
ممتلئ، كافتتاحية مهرجانٍ أو كرنفالٍ عظيم، كشموخِ صوتِ البرقِ بي
الأعاصير».

فقلتِ «سأكتفي بها مجردةً من أي تشبيه، سأكتفي بـ «أحبُّكِ» حير
تخرج من قلبكَ لتخجلني وتبعثر أنوثتي ثم تلملم بعثرتي.. يا من تجيد
بعثرتي».

وبصدقٍ كتبتُ لكِ.. «يا حنيني، لم أشعر بهكذا سعادةٍ أبدًا، فم
الشهر الماضي على أقل تقدير، ولم أشعر بهكذا حبٍّ يغزوني ويحتلُني
أبدًا، في حياتي كلّها على أقل تقدير!»..

* * *

صهرني حبُّكِ كقطعةِ جليدٍ وحيدةٍ في بردِ القطب الشمالي أشرقت
عليها شمسُ الدفءِ، شمسُ الحُبِ، فانساب منها الماءُ على هيئةِ أمني

ورجاءٍ بأن لا تغيب شمسُكِ أبدًا.

حبُّكِ علّمني كيف أكون نهر أمنياتٍ، كيف أكون مطر دعاءٍ.. علّمني كيف أتوب، وأغتسل من الذنوب.. رجاءً أن تُجاب أمنياتي، فتكوني لي يا حياتي. حبُّكِ علّمني كيف أكتبُ شِعرًا جميلًا طويلًا كجمالِ جدا الناعمةِ الطويلة. حبُّكِ يا حبيبتي علّمني أن عينيكِ أجمل طفلتين تقولا بأن هذهِ الحياة مجردةٌ من الفرحِ، من السعادةِ، من الحبُ، من البهجة دون بريقهُما. حبُّكِ علّمني أن أكون صوتكِ المفقود حينما ترغبي بالصراخِ؛ علّمني أن أكون الوطن الذي تجرين نحو صدرهِ كطفلةٍ حزينةٍ، فترمين أحزانكِ على صحرائهِ وتقولين « هُنا.. يموتُ الحزن.. هُنا.. لا يوجدُ حُزن ». حبُّكِ الذي أعطاني حق الفرحِ ها هو الآن يسلبُ حقوق مني، ويهديني الحزن على شكلِ ذكرى أبت أن تموت يومًا.

أشهدتُ الله على حبي لكِ، وأشْهدتُكِ على أن أبقى أسيرًا في سجر صدركِ..

«رضيتُ بكِ حُبًا، ورضيتُ بعينيكِ ترفًا، وأشهدتُ الله بأني لن أنسا يومًا، وبأني سأحملُكِ معي، في حضوركِ أو في غيابكِ، سأحملُكِ كم تحملُ أضلوعي قلبي، وسأسافرُ بكِ نحو سماءٍ ثامنة، نحو جنةٍ لا تطؤه أقدامُ نساءٍ أخرياتٍ».

وابتسمتي حين قرأتي عهدي، وسافرتي كفراشةٍ ترتشفُ الرحيق مز زهورِ العشقِ، ثم وضعتِ يديكِ على واحةِ صدركِ البيضاء وأجبتِ..

« وإني أُعاهدُ الله، وأُعاهدُكَ على أن تبقى نخلةً شامخةً في واحتي، لا شريك لكَ فيها، ولا شريك لكَ في مائها.. إني أعاهدُكَ حبيبي أن هذا القلب لن يعرف مجنونًا غيركَ، ولن ينبض بجنونٍ لغيركَ».

تعاهدنا على الحبِ وعلى الإخلاصِ، وأشهدنا الله على صدقِ حُبنا ثم بدأنا ننسجُ رداءَ مُستقبلنا معًا، ونرسمُ محياهُ بأيدينا، وندعو الله بأن يحيينا إلى أن نتشارك غطاءً واحدًا، إلى أن يكون صدري وسادتكِ، إلى أن تكون عيناكِ أجمل مشهدٍ في صباحي، إلى أن أزرع بذرة زهرتنا - طفلتِنا - الأولى في رحمكِ، وإلى أن يبيّض شعرُكِ وينحني ظهري فأكون لكِ أجمل صبغة شعرٍ وتكوني ليَّ أنعم عُكازَ مشي.

* * *

(8)

In his birthday, she was wondering «What will make him happy when he has everything?»… she was desperate until she remembered !that he does not have…. her

أيُّ جنونٍ عِشناهُ معًا وأيُّ تجربةٍ مثيرةٍ خضناها. كُنا كتوأم سياميين لا يستطيعُ أحدهُما العيشَ دون الآخر. كُنا كشمسٍ وقمر نجري خلفَ بعضنا البعض ونحيي بمطاردتنا كوكبًا يدعى الأرض. أيُ حبٍ هذا الذي يرافقُني حيثما ذهبتُ، يجعلُ لظلي ظلًا آخر، يجعل لفرحي فرحًا آخر، يجعلُني كسلطانٍ عظيمٍ يتباهى بكِ، يتباهى

بصولجانهِ المرصّع بزمرّدٍ وياقوت، يجعلُ هذهِ الأرض تدور تحتي، ويجع
غيمة الهذيانِ تمطرُ فوق رأسي.

كان حبُّكِ طقسًا خياليًا لا يمكنُ التنبؤ بميعادِ حلول فصولهِ الأربعة
كأن أصحو على ربيعهِ عندما يأتي خيرُ الصباحِ عذبًا مُتوردًا من
«صباح الخير يا حبيبي» التي تلقينها كرسالةٍ بريديةٍ في صندوق
قلبي، وكأن يحل الليلُ باردًا مُتجمدًا من غيابكِ ومن غيابِ رسائلكِ ع
صندوقي.

كان حبُّكِ أجمل حُبٍ عانقتهُ، وأبهى عشقٍ رأيتهُ.

لا زالت تفاصيلُ لقائنا الحقيقي الأول موشومةً في ذاكرتي، لا زلِ
أذكرُ خجلكِ الذي كان يفضحُنا، ودهشتي التي كانت تصرخُ بداخلي ب
«يا الله يا الله.. يا لجمالكِ.. يا لروعتكِ».

أذكرُ أنني كنتُ قبل ذلك اللقاء خارجًا مع صديقي الوحيد خالد، كُن
نضحكُ سويًا على مشهد الحذاء الناعم وهو محلّقٌ نحو رأس ذاك الشا
الذي لم يُحسن اختيار الفريسةٍ السهلة ليتغزل بها على مرأى الجميع
وليغويها بوسامتهِ.

حينها قلتُ ساخرًا لخالد..

- ما أغباه.. أيُطاردُ فتاةً تخفي كل شبرٍ من جسدها تحت عباءتها؟!

فأجابني وهو الخبيرُ بهذهِ الأمورِ..

- أكادُ أجزم بأنه كان يعلم بأنه سيواجهُ مصيرًا كهذا..

فسألتهُ مُستغربًا..

- إذًا لمَّ عاكسها؟

- لأن الصيد الصعب ألذُ بكثيرٍ من الفريسة التي تركضُ لصيادها..

كلماتُ خالد جعلتني أفكر بحالةِ حُبنا.. أيا تُرى إن لم تبادليني هذا الحب سريعًا لكن حبُّكِ أجمل؟ أيا تُرى امتناعُكِ عني وتجاهلُكِ لحبي كان سيجعلُني أحبُّكِ أكثر؟ ولكنني دون أن تفعلي هذا كلهُ أحببتُكِ جدًا للحدِ الذي يجعلُني أشهد بأن لا حياة إلا مع عينيكِ، ولا نعيمًا إلا بين ذراعيكِ.. حمدتُ الله أنكِ لم تتجاهليني ولم ترميني بحذاء قدميكِ.. حمدت الله أنكِ قُلتِ «أحبك» قبل أن تموت ابتهالاتي.

وسرعان ما انتهى لقائي بخالدٍ حين جاءت رسالتُكِ حاملةً مفاجأةً لم تخطر ببالي لحظةً واحدةً...

« في مثل هذا اليوم، ولد الرجل الذي أحبهُ كثيرًا، ولد الحبُ الذي لم يولد إلا ليحبني.. في مثل هذا اليوم، أحبُّكِ أنا وتحبُكَ سنيني... كل عام وأنتَ حبيبي».

نسيتُ يوم ميلادي.. فجئتِ حُبلى بيَّ، لتلديني من جديدٍ، لتخرجيني لدنيا حُبكِ، لفردوسٍ ركانٍ بين ضلعيكِ، فخرجتُ ضاحكًا من رحمِ عشقك متفائلًا بأن هذهِ الحياة ستكون أحلى.

«ياه يا حبيبتي.. كيف علمتي بيومِ مولدي؟ لا أذكرُ بأنني أخبرتُكِ مسبقًا بميعادهِ؟!».

وبكبرياءٍ أجبتِ..

«أعرفُ تفاصيلك، الصغيرة منها قبل الكبيرة، فلا تظن أنني غافلاً عنك».

«هههههه داهيةٌ أنتِ.. حسنًا، أين هديتي؟».

«هاه!.. أممم، لا تستعجل عليها كثيرًا، أحتاجُ لأن أُعدَّ لكَ هديةً تليق بمقامكِ.. يا أميري».

«هل يحقُ لي الآن أن أتكبّر؟».

«تكبّر مثلما تريد... ولكن لا تنسى أنك أميري أنا.. ولدى ما سواي فقير!».

كُنتِ مغرورةً بي، تتباهين بيَّ وكأنني مزهريةٌ عتيقة لا تصلحُ لغير شرفتُكِ. كُنتِ تدركين تمامًا أنني سأتوهُ إن رحلتُ لوطنٍ غيركِ.

وبشغفٍ انتظرتُ هديتكِ. كُنت شديد الإلحاح، أذكِّرُكِ بها بين الحين والآخر.. كنتُ أريدُ تذكارًا منكِ أُعانقهُ كلّما غبتِ، كنتُ أريدُ تذكارًا أحتفظُ بهِ لسنينٍ طويلة، حتى يأتي يومٌ أنفثُ الغبار عنه، وأقول لأطفالنا «اقتربوا وشاهدوا أولى هدايا أمكم».

انتظرتُ وانتظرت.. حتى جاءت أجمل هدايا الله، وأرقُّ هبةٍ من واهب السماء.

«رسالةٌ واردة»

- هتان.. هل تريدُ هديتك؟

وبشوقٍ عظيمٍ أجبتُكِ..

«أكيـــد!».

«إذًا لا تنم هذهِ الظهيرة.. سأتركُ لك الهدية في غرفةِ الغسيل الخارجية.. تعرفها صحيح؟».

«نعم أعرفُها.. ولكن كيف ستضعينها هناك!».

«لا تسأل الآن كيف.. ولكن ضع هاتفك بجانبك وانتظر رسالتي.. بالمناسبة، لا تذهب لأخذها إلا وأنت مُتأنق واحذر من أن يراك أحد!».

متأنق؟! وحذر؟! يا تُرى ماذا يدور في رأسكِ أيتُها العاشقةُ المجنونة! سألتُكِ كثيرًا لما تريدينني أن أكون متأنقًا، لما تريدينني أن أكون حذرًا؟ لما هذهِ الطلبات وأنا سأذهبُ لغرفةِ غسيلٍ منفيةٍ في أخرِ زوايا البيتِ سألتُكِ كثيرًا ولكنكِ تجاهلتي نداءاتي ولم تجيبي بشيءٍ غير أن الصبر مفتاحُ سعادتي!..

كُنا يومها في بدايةِ الصباح، وما ابعد الظهيرة عنا، صرتُ أعمل بتململ، أريد أن ينقضي هذا الصباح سريعًا، أريدُ أن أعود للمنزلِ وأكون قريبًا من غرفةِ الغسيل.. يا لحبُّكِ جعل من هذهِ الغرفة الصغيرة المهمشة شيئًا أشتاقُ لرؤيتهِ.

وكما تمشي السلحفاةِ على مضمارِ السباق انقضى صباحي، وعدتُ مُتشوقًا إلى المنزلِ.. فتحتُ الباب وإذا بجدتي تقول لي: «انتظر انتظر يا هتان.... حنين ارتدي عباءتكِ يا ابنتي»...

آه.. أنتِ هُنا! متى جئتِ ولمَّ لم تقولي أنكِ جئتِ؟! آهٍ منكِ لو علم أنكِ هنا لمَّ انتظرتُ لأن ينتهي وقتُ عملي.. تبًا أضعتي عليَّ فرص استراق النظر إليكِ... أضعتي عليَّ فرصة الاختباء خلف النافذةِ من أجل أن أرى عينكِ..

ارتديتِ عباءتكِ وسمحت لي جدتي بالعبورِ أمامكِ.. عبرتُ وعينا تنظرُ للأرضِ.. وكنتُ أعلمُ أنكِ تنظرين إليَّ، كنتُ واثقًا أن عينيكِ تدعُني أعبرُ أمامها دون أن تلتقط صورًا عديدةً لي لتحفظينها في ذاكرتكِ.. عبرتُ بابتسامةٍ على ثغري، ابتسامةُ مكرٍ وحبٍ لتلك الناعم التي تنظرُ لجسدي، وما إن دخلتُ غرفتي حتى جاءت كلمةُ «أحبُكَ سريعًا منكِ، رددتُ عليها بـ «أموت في حبُّكِ» ولم أكن أدركُ وقتُها أنن أحيا بحبُّكِ، فحبُّكِ أجمل حياة، وما دونهُ موتٌ أسودٌ..

رحتُ أفكر عميقًا بما جلبتهِ لـي، وبما ستهدينـي إياه.. رُبما باق وردٍ، ولكن كيف ستخفينها عن أنظارِ جدتي وأنتِ معها الآن؟!.. أو رسالةً منكِ؟ تكتبي لي فيها أنكِ تحبيني، أنكِ تريديني؟ أو صورة لكِ صورةً لقمرٍ انتظرتُ رؤيتهُ كثيرًا.. فأنا لم أركِ أبدًا، وأحببتُ عينيكِ أو وأغمضتُ عينيَّ عن ما تبقى من حُسنُكِ... أو دميتكِ؟ تلك الدمية التي كنتُ أكرهها كثيرًا كثيرًا في كلِ مرةٍ تخبريني أنكِ لا تستطيعين النوم إ عندما تحتضنينها؟!.. لا أدري، لا أدري.. ولكني سأقبلُ بالقليل منكِ سأقبلُ بأي ثمرةٍ تقطفينها لي من أغصانكِ.. فالقليلُ منكِ، كثيرٌ ف

قلبي...

مضت خمس وثلاثون دقيقة من التفكير.. حتى جاءت اللحظةُ المرتقبة..

«رسالةٌ واردة»

«حبيبي، اذهب لأخذ هديتك الآن، ولكن أرجوك كُن حذرًا من أن يراك أحد وأنت في طريقك».

رميتُ هاتفي، وارتديتُ ثوبي، وبدأتُ أمشي بسرعةٍ لكي لا يران أحدٌ وأنا أخرجُ. متشوقٌ لرؤيةِ ما وضعتهِ لي، وكأنني طفلٌ لم يُهد م قبل لعبةً.

أسابقُ خطواتي نحو تلك الغرفةِ الصغيرةِ المظلمة حتى وصلتُ إليه فكان بابهُا مفتوحًا قليلًا، فحشرتُ نفسي في تلك الفتحةِ الصغير وأغلقتُ الباب خلفي.

* * *

(9)

آهٍ منكِ.. قتلتيني.. آهٍ منكِ.. كسرتيني.. آهٍ منكِ يا حنيني، ليت الأيا تعودُ بنا، أو ليت هذهِ الأرض تنشقُ الآن وتبلعُنا، ليتنا لم نحب بعضن يومًا، ليتنا التقينا مُصادفةً ثم مضينا في طريقين لا تجمعُهما نقط التقاءٍ. ليتكِ امتنعتي عن حبي، لكن الأمر أهونُ على قلبي، لقلتُ

اذهبي للجحيم يا من لا تدركين معنى نبضي الجميل، لقلتُ: غبيةٌ
أضاعت على نفسها قُرب الرجل الوحيد الذي قد يقبلُ نقصها بكمالهِ
ولكنتُ الآن أضحكُ بدلًا من البكاءِ على الورقِ.

أخبريني ماذا أفعلُ حين يجنُ جنونُ حنيني، أخبريني ماذا أفعل
حين أتذكّرُكِ، حين أتذكرُ هديتكِ، وحين أتذكرُ لحظة مصرعي في
محرابِ شفتيكِ. أخبريني أيُّ زوايا الذكرى لا أجدُكِ فيها، أخبريني أيّ
متاهاتِ الحبُ لا تكونين أنتِ نهايتها، وأين أجدُ قمرًا لا يرسمُ وجهكِ على
سطحهِ. ليتكِ لم تقولي «أحبُكَ» يومًا، لبقيتي في عينيّ حُلمًا، ولبقيت
في مُحيطكِ صديقًا، صديقًا لا يموتُ حزنًا إن رحتِ عنه. أخبريني الآن
لمن أشكي هذا الحزن الثائرِ في صدري، لمن أُغني أجمل ألحاني، لمن
أكتبُ أجرأ قصائدي، ولمن أشكو جراح قلبي.

كاذبٌ لو قلتُ لكِ، تجاوزتُ مرحلةَ غيابكِ وأني سعيدٌ في حياتي
بعدما رحلتِ من حياتي، وأن الليل لا زال جميلًا، أسهرهُ فرِحًا وسعيدًا،
وأن الصباح لا زال فاتنًا، أقضيهِ مبتسمًا ومتفائلًا، وأن يومي يسري
بسلامٍ، دون دموعٍ وآهاتٍ. كاذبٌ يا قاتلتي، لو في يومٍ أخبرتُكِ، أنكِ
لستِ سوى فترة طيشٍ ومراهقةٍ، وأن حُبَّكِ اندثر في قلبي من يومِ هجر
صدري، وأني لم أعد أقلبُ ذكرياتي معكِ، وأني لا أسرحُ فيكِ ولا أعبر
حدودًا لأرتجيكِ ولا أحِنُّ لعينيكِ ولخدّيكِ وكفّيكِ، وأني تغلّبتُ عليكِ
ونسيتُ كيف كانتا لذيذتين شفتاكِ! كاذبٌ لو قلتُ لكِ أن الحنين -

حنيني - لا يستوطِنُني ولا هو دائمًا يقتلُني، وأن أشواقي ماتت منذُ أن
محبتي من قلبكِ طارت. كاذبٌ يا حنيني حين لا أشتاقُ إليكِ وحين أكذ
لغيرِ خدّيكِ حين أُصدِّقُ أنني نسيتُ من أنتِ.. يا كل ما أملك!

أكذب أنا حين أقول أني بخيرٍ وعيناكِ بعيدتانِ كل البعدِ عن ناظري.

أتساءلُ دائمًا، كيف لي أن أنساكِ، كيف لي أن لا ألتفت نحو بقايا
المنتثرة في أرجائي، كيف لي أن أعبر أمام تلك الغرفة الصغيرة دون أن
أشعر بغصةٍ عميقةٍ في حنجرتي فلا أقول أشتقتُ إليكِ.. أما زل
تذكرين؟ ماذا لقيتُ في تلك الغرفة؟ ماذا كانت هديتُكِ؟ ماذا كان
تذكارُكِ؟ أما زلتِ تدركين حجم تذكراكِ؟ وحجم دهشتي بهِ؟

وإن لم تذكري، تعالي أُذكِّرُكِ ... تعالي أُذكِّرُكِ بتلك اللحظة الت
دخلت فيها تلك الغرفة، وأغلقتُ الباب خلفي دون أن أعلم بمن يختبئ
فيها. أغلقتُ الباب ثم استدرتُ لأبحث عن صندوقٍ أو علبةٍ ما، فما وجد
أمامي غير عينيكِ، تحدّقُ بي بخوفٍ، بشوقٍ، وبخجلٍ.

وجدتُكِ أنتِ يا أجملَ هدايا القدرِ، وجدتُكِ مختبئةً بين سلالِ الغس
كلؤلؤةٍ مفقودةٍ، ترتعشُ يداكِ من البردِ، فارتعش قلبي من جمالِ عيني
وقفتُ أمامكِ حائرًا ومندهشًا، لا أعلم ماذا أفعل في هكذا لقاء ولا أعلمُ
أحلمٌ هذا الذي أنا بهِ الآن أم أنكِ الحلمُ بذاتهِ.

أربعُ خطواتٍ تفصلُني عنكِ، لا حواجز بيننا، وحيدانِ وقلبانا يترقبان
مُرتديةً عباءتكِ ويُدكِ ممسكةً بلثامكِ، وكأنكِ تخافين من أن تبان حُمر

خديكِ المشتعلينِ خجلًا.

عيناي تحدقُ مباشرةً في عينيكِ، وعيناكِ تحدِّقان في بلاطِ الأرضِ حتى رفعتِ رأسكِ وبرقت مُقلتاكِ.. نظرةٌ بنظرة.. والبادئُ أظلم! فابتسم واقتربتُ أكثر منكِ، وفي كلِ خطوةٍ نحوكِ شعرتُ بأني أطيرُ نحو جنتي.

«حبيبتي، آهٍ منكِ.. ماذا فعلتِ بيَّ، أترميني في هاويةِ الغوا ببساطةٍ هكذا.. أحبُّكِ يا مجنونة.. أحبُّكِ يا شقية.. أحـبُـ» وما ردعن عن إتمامِ ثالثةِ الحبِ إلا عناقٌ اقتحمتِ بهِ صدري وشددتِ يديكِ حو ظهري، وكأنكِ تريدين أن تختبئي بين ضلوعي، وتطوّقيني بأدفى حنانٍ.

كنتُ أعتقدُ أن الإناث ذواتُ سواعدٍ ضعيفةٍ هشة، إلا أن العناق يجعلهنَّ ذواتُ زنودٍ عاصرة!

تمنيتُ أن لا ينتهي ذلك العناق، تمنيتُ أن يتوقف الزمان بي وأنت في أحضاني، أو أن نتحول لتمثالين مُتعانقين يرانا كُل المحبين في ميدانِ العشقِ. ووضعتُ يدي على رأسكِ ورحتُ أشاغلُ شعركِ بأصاب وأهمسُ بكلماتِ الحبِ التي تجعلُكِ تدركين كم هو جميلٌ عناقي، فس لثامُكِ وبان وجهُ وجنتُكِ، بان وجهُ القمرِ الحقيقي الذي أنار عتمة فؤادي.

كنتُ واثقًا بأنكِ جميلةٌ، ولكني لم أكن أعرفُ أنكِ جميلةٌ للحدِ الذي يمكنُ لعقلي إستيعابهُ. لم أكن أعرفُ أن في خدكِ كمين محفور يدع غمازة، لم أكن أعلمُ أن شفتيكِ تنافسُ ألوان الورودِ الزهريةِ وتغلبُ بلونها، ولم أكن أدرُك أن تلك «الغرة» المنسدلةُ على جبينكِ مدعاةٌ للفتنة

حين رأيتُ وجهكِ شعرتُ بأنني نورسٌ قطع المحيط، حتى هبط عا
شاطئ جزيرةٍ مفقودة.. جزيرة ذاتُ كنوزٍ وياقوت، لم يمْسسْها من قبلم
قرصانٌ بحرٍ لئيم!

وبدأ شيطاني بالهمسِ اللعين: يا مُغفّل.. أتكتفي بالتحديق، وأمام
أُنثى أشهى من تذوّقِ شهد العسل!

فأجبتهُ بعقلٍ مفتون: لا والله لن أكتفي بالتحديقِ بها، لن أكتفي مز
عناقها حتى أتذوق السكر من ثغرها!

وذبتُ كالسكرِ في كوبِ شايٍّ يجيدُ إذابتي، وغرقتُ في نهرٍ نقيٍ عذ
يسري بين شفتيكِ، وبين خديكِ وشفتيكِ ثملتُ وترنحتُ!

ولا أذكر ماذا حصل بعدها، أو أني أذكر ماذا حصل بعد القبُلةِ
ولكني لا أريدُ أن أذكر! ما أذكرهُ حقًا هو أن عقارب ساعتي جُنَّ جنونها
وراحت تدورُ بسرعةٍ عجيبةٍ حتى رن هاتفُكِ ليبلغُكِ بوصولِ السائق
أشرتِ لي بإشاراتٍ لم أفهمها ولكنها كانت تدلُ على أنكِ سترحلين الآن
فعانقتُكِ مرةً أخرى، عناقًا يسألُكِ البقاء. وهممتِ بارتداء عباءتكِ الت
سقطت عنوةً ثم تحسستِ وجهي بيديكِ ومررتِ أصابعكِ في حديقةِ ذقن
وقبّلتِ يداي كفتاةٍ شاميةٍ تطلبُ الرضى من حبيبها.. ورحلتِ.

رحلتِ وبقيتُ وحدي هناك أطالعُ زوايا الغرفةِ وأتذكرُ ماذا حدث فيه
فابتسمُ وأضحكُ على جنوننا.

رحلتِ وبقى عطرُكِ يرافقني...

خرجتُ من تلك الغرفةِ مُنتعشًا، خرجتُ بروحٍ أخرى، روحٍ تقسمُ بأن ل
تبتعد أبدًا عنكِ، وأن تقضي باقي عُمرِها رهينةً لتلك القبلة، لذلك العناق،
ولذلك الجنون الجميل.

خرجتُ رافعًا رأسي للأعلى، أنظرُ للحياةِ بنظرة تفاؤلٍ كمريضٍ لا
شُفيَ من أوجاعهِ. أمشي وأشعرُ بأن الحيطان والأبواب وبلاط الأرض
ينظرون نحوي ويحاولون اكتشاف من أين أتت تلك البقعةُ الحمراءُ
الداكنةُ على عُنقي.. أشعرُ بأني في دائرةٍ محاطٌ بنظراتِ الشكِ ولكن
لا أبالي بنظراتهم وإن سألوني سأقولُ نحلةٌ شربت من رحيقي!

* * *

(10)

تعلّمتُ الكثير منكِ، ويا ليتني علّمتُكِ كيف لا ترحلين عني..

* * *

قد يُحب الشاعر عشر نساء، ولكنهُ لن يكتب إلا في واحدةٍ منهنَّ..
تلك الواحدة هي من علّمتُه كيف يكتبُ قصيدة.. كيف يخلقُ نصً
يحتويها.. تلك الواحدة هي من علّمتهُ حروف الحب وأبجدية العشقِ لكي
يكتبُها حُبًا حينما تبهجهُ بقربها، ويكتبُها حُزنًا حينما تقتلهُ بغيابها..

ولكني لم أكن شاعرًا من قبل أن ألتقيكِ، لم أكتب يومًا في أنثى
غيركِ ولم أعرف كيف تكتبُ الأنثى وكيف تكتبُ القصيدةُ للأنثى.. أنتِ م

جعلتيني أنسى بساطتي في التعبيرِ عن حبي لعينيكِ، جعلتيني أرتدي ثوبًا أخر مطرزًا بكلماتٍ وحروفٍ تحملُكِ معها على سطورِ العشقِ..

سأكتبُكِ حين لا يبقى كلامٌ يُقال

سأكتبُكِ بلغةٍ جديدةٍ وفريدة

لغةٌ لم تُقرأ من قبل..

لغةٌ لا تُقرأ إلا بالقلب

لغةٌ لا تحتاجُ لحروفٍ كثيرة

فقط.. ألفٌ وحاءٌ وباء

تليهم كافٌ كبيرة!

سأكتبُكِ شِعرًا مُلحنا..

وسطرًا بالغزلِ مُقننا..

سأكتبُكِ لتحيا بكِ الأوراق

ولترقصُ على ذكراكِ كلُ الأقلام

فـ تضحكُ كلمةٌ.. وتذوبُ كلمةٌ

ويولدُ سطرٌ.. وينحني سطرٌ

حتى تخرجُ من بين الكلماتِ

قصيدةٌ فرنسيةُ الرنين..

عذبةُ الترنيم كعزفِ نايٍ عظيم

فـ تغبُطكِ عليها فتاة

أحبت وتمنت

يومًا أن تكتبَ فيها قصيدةٌ

ترقصُ عليها كلُ إناثِ القرية!

وابتسمتِ عندما قرأتِ شعريِ وعضضتِ شفتيكِ خجلًا وضم دُميتكِ ولم تجدي غير «أحبُّكَ» مخرجًا لكِ من الخجلِ.

* * *

بعد ذلك اللقاء.. أو بعد ذلك العناق كان لابد من أن أتعلّم لغةً جديدة، لغةً أستطيعُ أن أفهمكِ أكثر من خلالها، أن أفهم تلك الإشارات التي صنعتيها بيديكِ يومِ اللقاءِ دون أن أدرك معناها، ولم أجد غيركِ يا أجم معلمةٍ في حياتي. وكم كُنتِ فرحةً حين أخبرتُكِ بأنني أريدُ أن أتعلم لغ الإشارةِ، وسألتيني..

- حبيبي.. لمَّ تريدُ أن تتعلمها؟

وأجبتكِ بحبٍ..

- لكي أفهم غضبكِ وخجلكِ وكلمة أحبُكَ التي تصنعينها بيديكِ..

- لا تقلق، غضبي وخجلي ستراهما على وجهي قبل يديّ..

- ماذا عن «أحبُكَ»؟

- أمممم حسنًا، حينما أريدُ أن أقول «أحبُّكَ» سأشير بأصبعي نحوك ثم سأغرسُه بوسطِ صدري..

- الله ما أجملهُ من تعبيرٍ.. هيا هيا أريدُ أنا أراكِ وأنتِ تفعلينها..

- يا مجنون، كيف ستراني؟

- الأمرُ بسيطٌ جدًا.. لديكِ «سكايب»؟

- أنت مجنونٌ فعلًا!

- هيا يا حنيني، أريدُ رؤيتكِ..

- حدّد طلبكَ يا هتان! تريدُ أن تراني.. أم تريدُ أن تتعلم لغة الإشار مني!

- الاثنانِ معًا!

ولأنكِ عاشقةٌ مغرمةٌ بالذقنِ لم ترفضي طلبًا يضعُ ذقني أما ناظريكِ..

تلك الليلة كانت جميلةً بكلِ جنونها، ففي الوقتِ الذي كُنتِ فيهِ ترتدي أجمل فساتينكِ وتكحلين مُقلتيكِ وتضعين الأحمر على شفتيكِ، كُنتُ أ أهذبُ ذقني وابتسم لمرآتي وأسألُها «ما رأيُكِ؟ هل ستعجبُ أكثر بي؟» وأشعرُ أنها تجيبُ بـ «لا تقلق، فإعجابُها بكَ فاق حدود الإعجابِ!»..

واستلقيتُ أمام شاشةِ حاسبي أنتظرُ تلك العلامة الخضراء التي

تبشرُ بحضورِكِ. وعلى عكسِ ما فعلتْه ساعتي يوم لقائكِ، مضت دقا
الانتظارِ ببطءٍ يشعلُ نيران شوقي. وفي كلِ دقيقةِ انتظارٍ كنتُ أتخيّلُ
أتخيّلُ ماذا سترتدين لي وبأي طريقةٍ ستبعثرين شعركِ.. آهٍ على شعركِ
آهٍ على نهرِ الفتنةِ المنتصفِ بين شلالاتهِ.. أشتهي مُشاغلتهُ بأصابع
إلى أن تنامي على صدري، ومداعبتهُ بأناملي حين تغسلينهُ بـ
«الشامبو»!

تخيلتُكِ كثيرًا ورسمتُ حُسنكِ في ألفِ لوحةٍ خيالية، وحين ظهرت
صارت قبيحةٌ كل لوحاتي!

لا شيء ينصفُ حسنكِ، لا هذا النص يستطيعُ أن يجيد رسمهُ ولا
ألفُ روايةٍ تقدرُ على استيعابِ صفاتهِ.. طاغيةُ الحسنِ أنتِ لحدِ
تلاحقكِ لعناتُ النساءِ حين تعبرين أمامهن فيتلاشى حُسنهن في الهواء!

ورغم أنه لقاءٌ افتراضيٌّ في عالمٍ افتراضيٍّ إلا أنني شعرتُ بأنك
حقيقة أمامي وكأنني أراكِ للمرةِ الأولى.. للدهشةِ الأولى.. لنبضةِ الحد
الأولى!

كان جمالُكِ مُربكًا، يأكلُ صوتي ويجعلُني أتحدثُ بلا كلماتٍ.. كا
آسِرًا، لا يعبرُ أحد أمامهُ دون أن يفقد قلبه.. ولشدةِ طغائهِ تجمدتُ أ
أمام شاشتي، أنظرُ إليكِ.. أنظرُ لشفتيكِ، لعينيكِ، لذلك المفرق الناع
بين تلالِ صدركِ!

وفجأةً اختفت صورتُكِ من أمامي وحلّ مكانها سوادٌ قطع لحظا

استمتاعي بمشاهدتكِ، ظننتُ أن الاتصال قد انقطع إلا أن ذلك الصندوق الصغيرُ في أسفلِ الشاشة نبهني برسالةٍ منكِ..

- هتان.. أستفعلُ هذا طوال محادثتنا! لن أعيد تشغيل الكاميرا عقابًا لك!

- ههههههههه، وماذا عساي أن أفعل؟! جميلةٌ جميلةٌ أنتِ! ولا أستطيعُ فعل أي شيءٍ في حضرتكِ!

- حسنًا استمر على هذا الفعل ولن تراني مرةً أخرى!

- لا لا!! سأكون مُهذبًا!

- وعد؟

- وعد.

- أحبك..

- وأنا أحيا بحبك..

كُنتِ تخجلين من نظراتي تجاهكِ، تخجلين برؤية الدهشة في بؤرة عينيّ، فتهربين مني لأنني فقط أذوبُ حينما أراكِ!

عادت صورتكِ من جديدٍ أمامي، وبدأ أول فصول التعليم.. كُنتِ تشيرين بيديكِ ثم تكتبين ماذا تقصدين بهذهِ الإشاراتِ، فتعلمتُ منا كيف أصنعُ حرف الهجاءِ بيداي، كيف أجعلُ الشمس تشرقُ من كفي وتغربُ في راحةِ كفيَّ الأخرى، وكيف أمسحُ على صدري لأقول لكِ أني بخيرٍ.


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

وكنتُ تلميذًا نجيبًا فذًا، يسألُ عن الصغيرة والكبيرة، لا يغفلُ عن أ
معلومةٍ تذكر، يلقي كل انتباههِ لمعلمتهِ التي تكافئهُ بقبلةٍ تبسمُ قلب
وثغره..

* * *

استمرت لقاءاتُنا الافتراضيةُ لأيامٍ كثيرة. خلال تلك الأيام كبرت علاقتُنا وأصبحنا قريبين من بعضنا كرئتين في صدرٍ واحد.

كان كل شيءٍ يمهّدُ الطريقُ لي لكي أطرق باب بيتُها، كان كل شي يقول لي أذهب وطوّق أصبعها بخاتمٍ وعهدٍ غليظٍ بينك وبين أبيها.

لم أكن بحاجةٍ لشيءٍ يُكلمُني لأتقدم لها، فقط كنتُ بحاجةٍ لأكمل نصف ديني بها، ولأكمل شريط السعادةِ في حياتي حينما أكون أبًا لطفلها.

كنتُ حين أتخيّلُ أنها ستكون زوجةً لي، أشعرُ بدغدغةٍ ناعمةٍ ف شرايين قلبي، دغدغةٍ تضحُكني كثيرًا كطفلٍ في المهدِ. كنتُ أشع بأنني سأُقبلُ على أيامٍ مليئةٍ بالحبِ والفرحِ، أشعرُ بأنني سأقبلُ عل صباحاتٍ رقيقةٍ تشرقُ من عينيها، وأمسياتٍ حمراء تختبئُ ف أحضانها.

تلك اللحظة حينما تطلقُ العنان لمخيلتكِ نحو مستقبلٍ ترسم بنبضاتِ قلبك وبأمنياتك مع من تحبُ رؤيتها، مع من تريدُ أن تستيقظ بسببِ شعرها المبعثر على الوسائدِ، مع من تتمنى أن تقبّلها يومًا بلا

إثمٍ..

تلك اللحظة جميلةٌ جدًا!

لحظة العومِ على موجِ الخيالِ جعلتني أمشي بقدماي نحو طريق حتفي..

مشيتُ بقدماي نحو أمي.. أمي التي أفنت عمرها في سبيل سعادتي وسعادةِ أختاي، اليوم هي تمزقُ قلبي إربًا إربًا وتلقي بأجزائ في عمق بحرِ الحُزنِ.. أمي التي أحبُها جدًا جدًا ولم أظن أنني سأكره قولها يومًا، اليوم كرهتُ قولها وتفكيرها ولم يشفع لها في قلبي إلا أنها حملتني تسعة أشهُرٍ في رحمها وأن جنة ربي تحت قدميها.

كيف لكِ يا أمي أن تمنعيني عن سعادتي، أن ترفضي أجمل قدر كان سيكتبُ لي.. كيف لكِ أن تأليميني هكذا وأنتِ التي سهرتِ ليال طويلة تداوين أوجاعي.. كيف لكِ أن تقولي « لا» في وجهِ ابتهالاتي وأنا طفلُكِ المدللُ الذي لم يسمع قبلًا لاءَكِ!

لم يكنُ رفضُكِ مقنعًا أبدًا يا أمي.. لم يكنُ عادلًا.. لم يكن مُنصفًا كان قرار رفضٍ لا استئناف فيهِ، كان قرارًا عنصريًا قاتلًا.. ألأن بكماء.. خرساء؟ لا تستطيعُ النطق؟ لا تستطيعُ إجابة الصوت؟ ألم تعلمي يا أمي أني رضيتُ بصمتها الجميل، ورضيتُ بثغرها الباسم الساكتِ وفضّلتُه على ألفِ شفاهٍ كاذبة؟ ألم تعلمي يا أمي أن كنت أسمع قهقهاتِ الفرحِ في مستقبلي منبعثةً من صوتِ حلقِ أُذنيها؟

وألم تعلمي يا أمي وللمرةِ الأولى أحسستُ بأنكِ لستِ بأمي!

كنتُ أسخرُ دائمًا على لقطاتِ العقوقِ في مسلسلاتنا العربية، تلا
اللقطات التي تظهرُ تحكّم المرأةِ ببعلها وتحوّلهُ لناكرٍ معروفٍ يقسو علم
أمهِ.. كنتُ أقول إنها دراما مبالغٌ بها، أو حبًّا جنونيًّا لا يمكن أن أراه
على أرضِ الواقعِ أبدًا.. وها أنا أقسو على أمي الآن من أجلكِ.. م
أجلِ حبٍ وضعني على هاويةِ الجحيمِ دون أن تعلمي أنتِ يا حبيبتم
بثورتي على حُكمِ أمي..

لم تكوني تعلمين أبدًا أنني أردتُ اختطافكِ من منزلكِ برضى أبيكِ
لم تكوني تعلمين أني أناقشُ تفاصيل فُستانكِ الأبيض بيني وبين أمي
كنتُ أريدُ أن أفاجئكِ.. كنتُ أريدُ أن أرد دين هديتكِ بهديةٍ تلقيكِ ف
أحضاني..

كنتُ أريدُ وأريدُ وأريد.. ويفعل اللهُ دائمًا ما يريد...

لم أخبرها أبدًا بما حدث معي، بما قالتهُ أمي، صرتُ أمثلُ السعاد
عليها، أكذبُ وأخبرُها بأن يوم اللقاء الحقيقي سيأتي قريبًا وسنفرحُ معً
وسنبكي من الفرحةِ معًا..

أصبحتُ تعيسًا حين أقرأ رسائلها، حين أقرأ كلمة «أحبّك» فيها
وحين أقرأ عهودًا عقدتُها في مرحلةِ هيامٍ وأصبحت الآن أعلم أنها قد لا
تتحقق أبدًا.

قلّت رسائلي لها، قلّت كلماتُ الحب التي أكتبها لها.. بدأتُ أهمله

كثيرًا، أهمل حاجتها لي ونداءها..

كُنتُ أختم محادثتنا بقولِ «لا حرمني الله منك يا حُلوتي»، وها أنا الآن أحرمُ نفسي منكِ، أحرمُ قلبكِ من قربي دون أن تعلمي لما هذا الحرمان ولما هذا البعد القاسي.

(11)

ديالا، طفلةٌ ولدت في بيتٍ ريفيٍّ بمدينة بيروتُ اللبنانية. كانت عائلة ديالا تعيشُ حالةِ فقر تقتلُ طموح أبنائها من إكمالِ دراستهم، فلم يكونوا قادرين حتى على شراء الكتب والأدواتِ الدراسيةِ التي يحتاجُها الصغار. حالة الفقرِ تلك جعلت ديالا تُؤمِن بأن لا مستحيل في هذه الحياة. فقد كان طموحها كبيرًا، ترى أنها نمت في الرحمِ الخطأ، فَمَنْ مثلها - في اعتقادها - لا تصلحُ إلا أن تكون أميرةً محاطةً بالخدمِ. كانت دائمًا تلعن حظها البائس الذي جعلها ابنةً لمزارعٍ فقير، وكانت تهدد عائلتها دائمًا بأنها ستهربُ منهم يومًا ما، ولكن أبويها لم يصدقا قولها، كانا يعتقدان أنهُ كلامُ مراهقةٍ متضجرة من حالة أهلها الاقتصادية، إلى أن صحا في إحدى الصباحاتِ المؤلمة ووجدا سريرها محشوًا بالقطنِ حاملًا رسالةً مفادُها «لا تبحثا عني.. أنا أحبكما ولكن لا أحب حياتي معكما.. وداعًا».

بحث عنها أبيها في كل شوارع بيروت، لم يترك مكانًا إلا وقصدهُ من أجل أن يجد أثرًا لها. كان يضعُ كل أسبوعٍ إعلانًا في صفحةِ المفقودين

بإحدى الصحفِ المعروفة، وكان يتوسلُ لصديقاتها كل يومٍ أن يخبروهُ إن كنَّ يعلمن بمكانها، ولكن لا واحدة منهنَّ تعلم بمكانها. سريرُها الخشبي الذي يئنّ من أي حملٍ يستلقي فوقهُ أصبح حزينًا يشتاقُ لمعانقتها مجددًا، وطاولتُها الخضراء في مدرستها ترفضُ أي فتاةٍ تحاولُ تملُكها. كل شيءٍ افتقد وجودها وصراخها وتذمّرها وغنجها المترف.

ديالا ذاتُ الثامنة عشر عامًا اختفت ولا أحد يعلمُ أين هي!

* * *

- صباحُ الخيرِ يا جدتي..

بأنفاسٍ متقطعةٍ وعيونٍ حزينةٍ.. أجابت:

- صباح الخير هتان..

- ما بكِ يا أمي؟ أرى ماءً محبوسًا في عينيك!

نطقت والدمعةُ تبللُ خدها..

- شاخ القلبُ يا بُنيَّ وقربُ موعدُ الرحيل.. أسمع دقاتهِ.. أسمع ندا الموتِ في داخلي..

بروحٍ خائفةٍ وقلبٍ منكسرٍ أجبتُها..

- ترحلُ روحي إن رحلتِ يا أميَّ الكبيرة.. ويموتُ قلبي إن دمعت عيناكِ.. هاكِ قلبي وهاكِ عمري وابقي أنتِ شمعةً مضيئةً في عتم الحزنِ..

بغضبٍ وحنانٍ ردت:

- يا الله الموتُ أحبُ إليّ مما يقولُ هذا الغلام.

وبصدقٍ دعوتُ:

- يا الله الموتُ أرحمُ عليَّ مما تقولُ هذهِ الوردة.

- وردة؟! أي وردةٍ أكون يا هتان..

- وردةٌ عبيرُها رائحةُ عودٍ عربيٍّ أصيلٍ كأصالةِ وفائها..

فابتسمت كما تبتسمُ العذراء، وكما تبتسمُ دائمًا لمغازلاتِ جدي الذي كان يراها وردةً لا تذبلُ أبدًا..

- هيا يا جدتي أخبريني ما بكِ..

- لا أعلم يا هتان، ولكن أشعرُ أن قلبي لم يعد يحتملُ نبضات أخرى..

- لا تقولي هكذا يا جدتي، وساويسُ شيطانٍ وسيهربُ منكِ حـ تذكرين الله..

- لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله..

- أطال الله بعمركِ يا نور حياتنا... أعرفُ أنكِ لا تحبين المستشفيات ولكن كوني مستعدةً حين أعود من عملي سنذهب للمشفى ونطمئن أكثر على صحتكِ..

- لا يا هتان، لا أريدُ أي طبيبٍ أو فحصٍ.. أنا بخير..

- لا تحاولي فلن ينفعكِ أي شيءٍ مع عنادي.. كوني مستعدة..

ودّعتُها وهي ترددُ بأنها لا تريدُ أن تذهب للمشفى وخرجتُ لعملي وأنا قلقٌ عليها..

* * *

ديالا الهاربةُ من الفقرِ التقت برجلٍ وسيمٍ ذي مالٍ عظيمٍ أُعجِب بجمالها وبنحفِ خصرها وبتلك الشفتين المكتنزتنِ فعرض عليها فرص النجاةِ من إعصارِ الفقرِ، عرض عليها زواجًا ذا مصلحةٍ متبادلةٍ بين الطرفين. فهو يريد تذوّق هذا الجمال الذي تمتلكهُ، وهي تريدُ ذلك المال المتراكم في خزانتهِ. التقيا قبل أسبوعين من ليلةِ الهروبِ وكانت صديقتُها سلمى هي حبلُ التواصلِ بينهُما. كانت سلمى التي تكبرُ ديالا بأربع أعوام تعملُ في مجالٍ دنيء تبيعُ فيهِ أجساد الفتياتِ الفاتناتِ لأشبه الرجال! كانت وظيفةُ سلمى هي أن تبحث عن الفتياتِ الفقيرات الجميلاتِ وتغريهنَّ بالمالِ ليهربن من منازلهنَّ ويتزوجنَّ - وأحيانًا لا يتزوجنَّ - برجالٍ أغنياء وتتقاضى هي حزمةٌ من النقودِ نظير أعمالها القذرة.

في بدايةِ الأمر لم تقتنع ديالا بالفكرةِ، كانت خائفة من أن تهرب مع رجلٍ لا يحسنُ معاملتها، يؤذيها ويأكلُ جسدها ثم يرميها عظمًا لكلاب الطريقِ. فكّرت كثيرًا وبكت كثيرًا من شبحِ الخوفِ الذي يلاحقُها. أتهرب من منزلِ أبيها وترتمي في أحضانِ رجلٍ غريبٍ لا تعرفُ عنهُ شيء سو

أنهُ غنيٌّ؟ ولكن لما لا تهرب؟! لما لا تنتهز هذه الفرصة التي سترفعها من وطأةِ الفقرِ إلى سماء الغنى؟! أليس هذا ما حلمت بهِ؟ سفرٌ وما حقائب غالية الأثمانِ وطاولةٌ في درجها الأول قلائدٌ وياقوتٌ وعلى سطحها مستحضراتُ تجميلٍ بألوانٍ عديدةٍ وخزانةٌ مليئةٌ بالفسات القصيرةِ المستوردةُ من فرنسا وأحذيةٍ صنعت في إيطاليا؟! أترفضُ ك هذا وترضى أن تبقى في منزلِ أبيها تغسلُ ملابسهُ التي تغيّر لونُها مر كثرةِ الطين التي تحملهُ بين خيوطها وتساعدُ أمها في الطبخ للغيرِ م أجل أن يحصلوا على مالٍ يسدُ حاجتهم؟!

سلمى تتصل بها كل ليلةٍ وتخبرها بأن من ينتظرُها قد لا يصبرُ أكثر، عليها أن تقرر بسرعةٍ، فأما أن تهرب وإما أن تبقى بين جدران منزلها المتهالك.

وافقت ديالا.. وافقت على أن تترك أهلها حزينين خلفها وأن تكتفي بسعادتها فقط. وافقت بعد أولِ لقاءٍ بينها وبين ذلك الرجل الذي يكبرهُ بثلاثين سنةٍ على الأقل!

* * *

انتهت ساعاتُ عملي وتوجهتُ عائدًا للمنزل لكي أُقِل جدتي وأذهب بها للمشفى..

أخذتُ هاتفي واتصلتُ على جدتي لتكون مستعدةٌ للخروجِ. أجابتني سريعًا وقالت إنها ستذهبُ فقط من أجلي، وأخبرتني أيضًا أن طفلتها

البارةُ بها سترافقُنا أيضًا.. حنين طفلتُها التي لا تتركها لوحدها أبدًا!

لقاءٌ آخر سيجمعُني بها، لقاءٌ آخر غيرُ متوقعٍ ولكني أجزمُ بأنها هي من أصرت على القدومِ حينما علمت أن جدتي ستذهب لوحدها معي..

أي لقاءٍ هذا سيكون؟ لقاءُ حُبٍ أم لقاءُ عتبٍ على إهمالِ العاشق لمحبوبتهِ.. هل أبتسمُ لها حين أراها؟ ولكن كيف أبتسمُ في وجهٍ أوجعته بغيابي عنه، كيف أبتسمُ أمام قلبٍ خذلتهُ بابتعادي عنه.. لقاءٌ لم أتمناه لقاء دقائقُ من وجعٍ وخذلان..

وكم كانت تقتلُني نظراتُها الحزينة نحوي، تنظرُ لانعكاسِ صور وجهي على المرايا وحينما تلتقي عيناي بعينيها تلتفتُ وكأنها لا تهتم أبدًا لرؤيتي. تلك النظرات الباردة بين حبيبين أقسى من أي عتابٍ وهي وسيلة تعذيبٍ مؤلمة.

لماذا تغيّرنا هكذا، فجأةً تغيّرنا أو تغيّرتُ أنا فقط. لماذا ما عدتُ ذلك الرجل الذي يحترقُ شوقًا لرؤيتها، لماذا لم أعد ذلك الرجل الذي أقسم أن لا يُبكي عينيها أبدًا. أهو الخوف من أن لا أنالها يومًا هو ما يجعلني أؤلمُ قلبها هكذا؟ يجعلُني أقتلهُ ببطءٍ بسكين الإهمال.

وصلنا للمشفى، أربعةٌ كُنا، أنا وجدتي وحنين والعتاب.

توجهتُ لركنِ الاستقبال وطلبتُ موعدًا عاجلًا مع طبيبةٍ تفحص جدتي، أخبرونا أن ننتظر قليلًا فتوجهتُ لصالة الانتظار بينما جلست جدتي وحنين في قسم النساء.

انتظرنا حتى صاحت إحدى الممرضات باسمِ جدتي فدخلنا لغرفةِ الطبيبة.

هناك التقينا بطبيبةٍ عربيةٍ شكلُها يوحي بأنها شابةٌ صغيرة، بدأت تتحدثُ مع جدتي وتسألُها عن وجعها وماذا تشعرُ بهِ، وفي الوقتِ ذات أنا من كان قلبي يتألم برؤيةِ حنين أمامي دون أن أستطيع أن أقدم لها اعتذارًا على غيابي، على دقائق الانتظار التي سهرتها راجيةً وصالي.

كانت نظراتي نحوها وصدُها عني مثيرين للشكِ للحد الذي جعل تلك الطبيبة العربية تمازحُنا وتسألُ «هل أنتما مرتبطانِ ببعضكم البعض؟» تجمّد كُلّ منا في مكانهِ وزاد نبض قلبينا، وضعتنا تلك الطبيبة بسؤالها في موقفٍ لا نحسدُ عليهِ إلى أن أنقذتنا جدتي بضحكتها وهي تقولُ «لا، هؤلاء أحفادي، هذا هتان وهذهِ حنين وهم أعزبان» ابتسمت الطبيبة ونظرت نحوي ونحو حنين وكأنها تعلمُ أن هناك شيءٌ بيننا نخبئّهُ عن الجميعِ.

ذهبت جدتي والطبيبة خلف ذلك الستار الأزرق لإجراء بعض الفحوصات وتبعتهما حنين بعدما لم تستطع أن تجلس أمامي دون أن تفعل شيئًا.

في تلك اللحظة، تمنيتُ كثيرًا لو كان لكِ صوتٌ يسمع. تمنيتُ أ أسمع عتابًا منكِ فمهما كانت كلماتهُ قاسية أو موجعة فإنهُ أهون من هذا الصمتِ الباردِ. يا تُرى لو كنتِ تستطيعين النطق فكيف ستكونُ رد

صوتكِ؟ ياه لو كنتِ تنطقين فقط لكان صوتُكِ أجملَ من غناء فيروز فـ
أولِ الصباحِ، لكان صوتُكِ أشبهَ بتغريدِ عصفورةٍ ترقصُ على أغصـ
الشجرِ. آهٍ لو كنتِ تتحدثين فقط لما وصلنا لهذا الحال المؤلم، لما قالتـ
جدتي «أعزبان» عنا!

انتهت فحوصات جدتي وأخبرتنا الطبيبةُ أنها بخيرٍ ولكنها تحتاجُ
للراحة وعدم بذل أي مجهودٍ قد يرهق قلبها. خرجنا سعداء بهذه النتيجة،
وقبل أن نخرج من المشفى جاء صوتُ الطبيبة مُناديًا..

- أستاذ هتان.. أستاذ هتان..

التفتُ نحوها وأجبتُ ندائها..

- نعم، تفضلي..

- نسيتُ أن أعطيكم وصفةً لبعض الأدوية التي تحتاجُها جدتكم.. لو
سمحت الحقني لأكتبها لك..

لحقتُ بالطبيبة بينما جلستا جدتي وحنين على المقاعد القريبةِ من
باب الخروج تنتظران عودتي.

وفي غرفة الطبيبة كانت الطبيبةُ تكتبُ تلك الوصفة وهي تبتسـ
وكأنها خجلى من أمرٍ ما. أخذت ما يقاربُ العشرة دقائق وهي تكتب
وتبرّرُ تأخيرها بأنها لا تريدُ أن تكتب علاجًا ذا مفعولٍ قوي وأنها تحاول
استذكار اسم أحد الأدويةِ. وقبل أن تعطيني ورقة العلاجِ قالت وهي
تُقلّبُ عينيها شمالًا ويمينًا..

- يا أخ هتان أنا قلقةٌ جدًا على وضعِ جدتك..

بصوتٍ متفاجئ قلت..

- ألم تقولي إنها بخيرٍ وتحتاجُ للراحةِ فقط؟!

تلعثمت قليلًا ثم أجابت..

- نعم نعم قلتُ هذا ولكنني في نفس الوقت لم أشأ أن أتحدث بصراحةٍ أمام جدتك فتنزعج هي من حديثي..

- إذًا ماذا؟ أخبريني ما بها..

- هي بخيرٍ لا تقلق، لكن قلبَها أصبح ضعيفًا جدًا وتحتاجُ الآن لعنايةٍ كبيرة.. لا تدعوها تبذلُ أي مجهود، يجب أن لا تصعد أي سلالم وأن تبقوا دائمًا بقربها لخدمتها..

- سنفعلُ ذلك إن شاء الله..

كان كلام الطبيبة متناقضًا بعض الشيء، فمرةً تقول إن جدتي بخيرٍ، ومرةً تقول أن وضعها غير مطمئن، ثم تعود وتقول أنها بخير وتحتاجُ للراحةِ فقط، وكأنها بتناقضها هذا تريدُ أن تقول شيئًا تخجلُ من البوحِ به.. وصدق حدسي، بعدما انتهت من كتابة الوصفة سألتني وخدّاها مُحمرانِ..

- هل تستطيعُ أن تطمئنني غدًا بحالِ جدتك؟..

أجبت سؤالها بسؤالٍ آخر..

- هل تقصدين أنكِ تريدين رؤيتها غدًا أيضًا؟

- لا.. لا.. لحظة من فضلك..

أخرجت ورقةً صغيرةً من درجها وكتبت عليها بعض الأرقام ومدّتها بخجلٍ لي..

- تفضّل هذا رقمي.. فقط اتصل بي غدًا وطمئني على حالِ جدتك...

باستغرابٍ أخذت الورقة منها ثم ودّعتُها...

(12)

منذُ اليوم الأول الذي عرفتُكِ فيه وأنا لم أتجرأ يومًا على أن أقترب من امرأةٍ أخرى. ومنذُ اليومِ الأول الذي أحببتني فيه وأنا لم أتجرأ على أن أُحبِ امرأةً أخرى.

ولكن كل شيءٍ تغيّر الآن..

لا أنا هو أنا، ولا أنتِ هي أنتِ.. ولا هذهِ الأحلام التي بيننا صارت تكبرُ وتكثرُ، ولا هذا القلبُ صار يهتم.

نعم أخافُ عليكِ، وأحبُّكِ، وأريدُكِ.. ولكن ماذا عساي أن أفعل أمام قدري. ماذا عساي أن أفعل لأنالكِ وأنا رجلٌ شرقي لا يتزوجُ من يحبها إلا برضى أمهِ وتبريكاتِ عشيرتهِ.

حاولتُ مرارًا وتكرارًا بأن أكسرُ حاجز الرفض هذا الذي وضعتهُ أمي بيني وبينكِ، وفي كل محاولةٍ تخيّرني أمي بين جنةِ عينيكِ وتلك الجنة الموضوعة بأمر الله تحت قدميها.

تقتلُني رسائلُ شوقكِ في كلِ ليلةٍ، أشعرُ أني مجرمٌ أمامها. كيف
استطعتُ أن أُبكي فتاةً لم تعرف البكاء قبلي؟ وكيف يقوى قلبي على
الصدِّ أمام أجمل أمنياته؟

تكتبين لي أنكِ وحيدةٌ دوني، وأنكِ لا تعرفين سببًا لغيابي الذي يأك
قلبكِ وصبركِ. تحاولين جذبي من جديدٍ بكلمةِ «أحبك» أو بـ «اشتق
لك» أو حتى بصورةٍ لكِ عساها أن تذكّرني كيفُ كنتُ أجنُ حينما أرا
وتسألين ماذا حدث لي.. ما الذي غيّرني وحوّلني لمجرمٍ في مدينة الحبِ،
وأنا من كان العادلُ بالحبِ بين عينيكِ وخديكِ. أتراهُ ملّ صمتي؟ أم أ
كما توقّعتها مسبقًا نزوةٌ وستزولُ بعد أن يتذوقني؟

تسألين وأصبحُ أنا الأبكم الذي لا يستطيعُ إجابتكِ..

أتجاهلُ رسائلكِ وصوركِ وتنتابُني حالةُ أرقٍ تجعلُني أشعرُ أن
ظالمٌ لن يهنئ لهُ النوم أبدًا.

يا عيناها ناما، ودعيني أنا للسهرِ وللبكاءِ وللأحزانِ.. دعيني أموت
شوقًا ولكن لا تدمعان فأموتُ قهرا.

كلما تذكّرتُكِ شعرتُ بقرصةٍ في قلبي. ذكراك أصبحت داءً ينتشرُ ب
جالبةً لي أعراض مرضِ الحبِ المقتل. حنيُن وشوقٌ وبكاءٌ يحت
فضاءاتِ عينيّ.

أتساءلُ دائمًا، ماذا لو هربتُ بكِ؟! ماذا كان سيحدثُ لو اتفقنا عل
الهروبِ معًا، نهربُ ونحنُ ممسكين بأيدي بعضنا البعض، لا يهمّ إلى أي


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

سنهربُ، الأهم هو أننا نبقى معًا. لا شيء يفرّقُنا ولا شيء يبعدُنا عن بعضنا. تنامين على صدري كل ليلةٍ، وأقبّلُ خديكِ كل صباحٍ. نرحل لمنفى يحتضنُ هذا الحب ويجمعُ شمل شفتينا. ماذا كان سيضرُّ هذا العالم بأسرهِ لو عانقتُكِ الآن؟ ماذا سيحدثُ لهذا الكون لو قبّلتُكِ الآن؟

ولما لم اختطفكِ؟! لِمَ رضيتُ أن أعيدكِ لمنزلكِ حينما كُنتُ منفردًا بكِ في شوارعِ المدينةِ، ولما رضيتُ مرةً أخرى بأن أدعكِ ترحلين بعد أولِ قبلة شهدتها جدران غرفةُ الغسيل؟!

لو أننا هربنا معًا، لما ظللتُ هنا وحدي أستحضرُكِ من رمادِ ذكرايَ وأكتبكِ كروايةٍ أو حكايةٍ للعشاقِ.

ليتكِ كُنتِ ديالا! تهربين معي بلا مبالاةٍ بما ستخلّفينهُ وراءكِ من حزن يستوطنُ صدور أهلكِ.. ليتكِ كنتِ مثلها أنانيةً لا ترضين بأقل من سعادتكِ.

ولكن ما شأننُا نحن وما شأنُ ديالا بنا؟!

ديالا الفتاةُ الهاربة من وطنها لم أكن أعرفها من قبل أن تشتكي جدتي من نبضِ قلبها، ومن قبلِ أن أذهب معها لزيارةِ تلك الطبيبة التي كتبت رقم هاتفها لي جاعلةً عقلي يحتارُ بنواياها. ترددتُ كثيرًا بالاتصالِ بها، وأخبرتُ صديقي خالد عنها فقال لي:

- إن لم تتحدث معها، فسأفعلُ أنا!!

كان خالد يجزم بأن تلك الطبيبة لم تكتب لي رقمها لأنها تريدُ

الاطمئنان على صحةِ جدتي، كان يقول إنها تسعى لشيءٍ آخر لا يتعلقْ بجدتي أبدًا.

لم آخذ كلامه على محملِ الجد فهو دائمًا يرى النساء بصورة مشوّهة.

وبعد إلحاح خالد أخذتُ هاتفي واتصلتُ بها وهو جالس بجانبي يسترقُ السمع على حديثنا..

بصوتٍ خافت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد بضعةِ ثواني.. أجابت:

- وعليكم السلام.. من معي؟

- أهلًا بكِ يا دكتورة.. أنا هتان الذي زاركِ قبل يومين مع جدتـ..

- أهلًا هتان تذكرتُكَ.. كيف هو حالُك؟

- بخيرٍ ولله الحمد..

- وكيف هو حال جدتك؟ أهي بخير؟

- نعم بخيرٍ ولله الحمد..

- الحمد لله..

- فقط أحببتُ أن أطمئنكِ عليها كما طلبتِ مني..

- ممتنة لكَ يا هتان..

وبطريقةٍ أغرب من طريقة طلبها لمحادثتي.. سألتني:

- هل تمانع إن اتصلتُ بكَ بعد ساعتين تقريبًا؟

- لا أمانع يا دكتورة..

- إذًا نتحدث لاحقًا.. مع السلامة.

- في أمان الله..

انتهت المكالمة والتفتُ نحو صديقي خالد وصار يضحكُ ويسخرُ منه ويؤكد لي ظنهُ حينما قال إنها تسعى لأمرٍ آخر..

ومع ثاني اتصالٍ، كان الأمرُ واضحًا وليس بحاجةٍ لتفسيرٍ آخر، غير أن تلك الطبيبة تحاول أن تجد صديقًا تتحدثُ معه. رُبما لأنها جاءت من بلادٍ أخرى تصادقُ فيها المرأة الرجل ويخرجانِ معًا في نزهةٍ ويتناولا العشاء معًا دون أن يخافا من أعين الناس التي تشكك بصلتِهما ببعضهما، ولم يخطر ببالها أنها تعيشُ الآن في بيئةٍ محافظة قد تعتبر أي تواصل بين الأنثى والرجل جريمةً يعاقب عليها الشرع والقانون.

حديثُها ونبرةُ صوتها وتلك البحةُ الجميلةِ فيهِ جعلتني أصغي لها كطفلٍ مستمتع بصوتِ هديلِ الحمامِ. تلقي بكلماتٍ حلوة الرنين ف أذني، كلماتٍ مترفة الغنجِ اكتسبتها من لهجة وطنها الأخضر.

كانت كقطةٍ أليفةٍ خائفة تبحث عمّن يداعبُ فروها حتى تنام مطمئن بأن هناك من يهتمُ بها. أخبرتني عن عملها كطبيبةٍ متخصصةٍ في أمراضِ القلب، قالت «كنتُ أحب عملي جدًا، أحب اللحظة التي أسم

فيها نبضاتِ قلوب المرضى، فأطمئنهم أحيانًا بأن قلوبهم لا زالت قويةً وقادرةً على تحملِ أوجاعِ الحياة، وأوجعهم أحيانًا أخرى حينما أقول لهم بأن قلوبهم تعبة من هذهِ الحياة.. كنتُ أحب هذا العمل حينما لم أكن بحاجةٍ لمن يتحسس قلبي ويخبرني عن حالهِ، ولكن إلى متى وأنا أسمع رنين قلوبِ الغيرِ ولا أحد هنا يستطيعُ سماع هذا الرنين الحزين الذي أشعر بهِ في قلبي، أرهقتني هذهِ الحياة حتى ذبل وجهي، أقفُ أمام مرآتي ولا أرى نفسي، شعري بدأ يتساقطُ كأوراق شجرةٍ تقفُ وحيدةً أمام رياح الخريف، وحيدةٌ أنا، أشعرُ أني «أنا» أصبحت بلا «أنا»..

أردتُ أن أخفف عليها قليلًا.. فقلتُ لها:

- يا دكتورة.. إنـ...

قاطعتني قائلةً:

- لا تناديني بقلبي.. ألا تريدُ أن تكون صديقي؟!

بخجلٍ أجبتُها:

- نعم.. لنكن أصدقاء..

- إذًا ناديني باسمي.. ناديني بـ «ديالا» فقط.

- حسنًا يا... ديالا.. إن الحياة ظالمةٌ أحيانًا، لا تعطينا بمقدار ما نعطيها.. لستِ وحدكِ من يشعرُ بالتيهِ، ولستِ وحدكِ في دائرة الاهتمام.. ولكنها الحياة، حياةٌ واحدة، فإما أن نتجاهل قسوتها لنسعد،

وإما أن نلهث وراءها كالكلابِ حتى تفقدنا...

- أتشعرُ بالوحدةِ يا هتان؟ أتشعرُ بها وأنت بين أهلك وصحبكَ؟..

- الوحدة ليست بغيابِ البشر من حولنا.. الوحدة أن تغيب أنفسنا عنا..

- ولِمَ تشعرُ بغيابكَ عن نفسك؟

- نفسي تمردت عليَّ وانشقت عني، وراحت تركضُ وراء من منعت القدرُ من الحصول عليها..

- تُحب؟

- رُبما..

- ما يمنعك عنها؟

- الأمر معقّد..

- لا يوجد أمرٌ معقّد.. ولكن يوجدُ أمر لا يصلحُ للبوح.. أتفهم صمتلَ يا هتان، وأفهم حشرجة حنجرتك حين تريد البوح بهذا الشيء.. ومن منا لا يملكُ أسرارًا؟

- وأي سرٍ تخفينه أنتِ يا ديالا؟

- سري أقبحُ من أن يستمع إليهِ أي صديق، دعهُ في قلبي ولنفسي فقط..

- نحنُ أنانيون حتى في إطلاقِ أوجاعنا..

قهقهت وقالت:

- رُبما..

وقبل أن تتعانق عقارب الساعة عند الثانية عشر صباحًا ودعتني بلطفٍ ووعدتني أن تبوح بسرها لي عندما تقدرُ على تحمّل ألم خروج من صدرها، وكأنها بوعدها ذلك تخبرني أن هناك أيامًا قادمة ستجمعُ صوتي بصوتها.

(13)

When I told you I do not love you, it was the blackest lie in my life!

* * *

(لديك رسالة بريد إلكتروني جديدة)

«عزيزي هتان.. أكرهك!

نعم أكرهك بقدرِ ما أحببتك، أكره غيابك هذا.. بما أخطأتُ لتعاقبني هكذا ولتعذّب قلبي الذي يتلهفُ لوصلك.. أشعرُ بالذنبِ لأنني أحببتُك ولأنني سمحتُ لرجلٍ أن يؤلم قلبي.. أشعرُ بالأسى على نفسي، نفسي التي تنتظرك صبح مساء، وتنتظرُ وجهك ليقبل عليها كشمسٍ تتوقد..

عيّشتني في حيرةٍ مؤلمة، جعلتني أشكو حزني لغيرك، وجعلت غيرك يربّتُ على كفي.. أيها العاشق الذي جُنّ بهِ قلبي، ماذا حدث لك؟ ما الذي غيّرك وأبعدك كغيمةٍ أراها ولا أستطيعُ لمسها.. ألا تذكرُ وعدك؟ بأنك لن تدعني يومًا للحزنِ؟ ألا تذكر كم من مرةٍ أقسمت أن تسعدني؟..

أكنت تلهو بقلبي حين وعدتني؟ أم كنت تكذبُ لتلهو بقلبي؟.. لا يهم ماذا كنت تفعل، ولكن أنظر لما تفعلُه الآن بيَّ..

أريدك بمقدار هذا الألم الذي أشعر بهِ عندما أقول أريدكَ ولا تأتي أشتهيكَ وأنا الأنثى العذراء التي نذرت نفسها لكَ ولشفتيكَ..

ما أقواكَ وما أقساك.. أتتركني في خلوةٍ مع طيفك؟ أتدعُني في حيرةٍ مع ظلّك؟..

أتعبني البكاء حتى صار دمعي والماءُ سواء.. أتعبني الظلامُ.. الظلام الذي صرتُ أختبئ فيهِ لكي لا تفضحني هالاتُ السوادِ الداكن حول عيني..

أترضى؟ أترضى بأن تذبل عيناي هكذا كوردةٍ وحيدةٍ في حديقتكَ. وحدك من يقدرُ على أن يسقينها لتعود مزهرةً نديةً تسرُّ ناظريك؟.. كُنتَ حُلمي الوحيد، وأخشى أن تبقى حُلمًا..

كم مرةً عليَّ أن أخبركِ بأني أشتاقُ لك.. كم مرةً عليَّ أن أبكي لأطفئ نار شوقي بالدمعِ.. كم مرةً علي يا حبيبي أن أخبرك أنكَ حبيبي لتعود إليَّ...

ولأولِ مرةٍ أكرهُ صمتي.. أكرهُ ثغري الأبكم.. أكرهُ حنجرتي التي لا تستطيعُ الصراخ باسمك الآن..

أنا هُنا على مقعدِ الانتظار أنتظرك.. أنا هُنا في دائرةٍ ذات ظلال مرعبة.. لا أدري أين باب الخروج، ولا أدري أين شعاعُ النور.. أنا هنا

في دائرةِ غيابكَ أموت..

دونك أنا في حالةِ انهيارٍ.. زلزال الشوق دمّر كبريائي.. جعلهُ حطامًا ورمادًا.. وجئتُكَ الآن بطلبِ اللجوء.. إلى مدينتي.. إلى قلبك..

مفلسةٌ أنا منكَ.. وحبِّي لكَ دينٌ في رقبتكَ..

أرجوكَ يا حبيبي، عُد لي ورُدَّ لي ديني..

سأنتظرك.. وسأكلُ أناملي في كلِ دقيقةٍ لا تقترب فيها مني. أناملي المطلية بالأحمرِ.. تلك التي تحبّ لونها كثيرًا.. ستتشوهُ إن لـ تأتِ.. وسأجعلُ المقص بجانبي.. أعدُكَ أن أقص شعري الطويل الذ داعبته بيديكِ.. وألقي بهِ في سلةِ القمامة.. لكي لا أذكرك في كلِ مر أهذّبهُ ولا أجد يديكَ لتبعثرهُ من جديدٍ..

وإن لم أفعل كل هذا، سيكون من الظلمِ أن أتأنق.. أنا ألبس القصير دون أن أجد غزلًا منكَ، وأن أضع الأحمر على شفتيَّ ولا أنامُ وهو لا زا عليها..

أكرهُكَ يا هتان لأنك جعلتني أكتب لك هذه الرسالة، وسأكرهُكَ حي تقرأُها ولا تأتي راكضًا محطّمًا لباب عزلتي..

لا زلتُ أحبك..

* ملاحظة: هناك أمرٌ هامٌ قد حدث.. أرجوكَ لا تجعلني أيأس منكَ لا تجعلني أبحث عن طريقٍ لنسيانكَ..

حنينك..».

لستُ أعرف ماذا يجب أن أكتب لكِ.. كلما كتبت عذرًا وجدتهُ أقبح مر
بياض الرسالة.. كلما أردتُ أن أكتب لكِ شوقي، وجدتهُ أقسى مر
صمتي.. أخافُ من كلِ كلمةٍ قد أكتبها هنا وتعلّقكِ أكثر بي.. تعلّقُ
بشباكي كنحلةٍ يائسةٍ في شباك عنكبوتٍ لئيم..

وأخافُ أن لا أكتب لكِ وتشعرين أن هذا القلب قد مات، وأن هذ
العشق قد ضاع..

ليتكِ تكرهيني حقًا.. ويا ليتني لا أسمع صدى «أحبك» في كلِّ مر
تكتبتي فيها «أكرهك»..

أحبُّكِ.. أحبُّكِ يا قدري، ولا مفر لي من القدرِ.. وفراقكِ مصيبةٌ، وأ
والمصائبُ في علاقةٍ وطيدةٍ..

نكأتِ برسالتكِ جرحًا غائرًا، وكل حرفٍ فيها بعث أشواقي من جدي
من مرقدِها..

تتجمد أرجلي في كلِ مرةٍ أعبر أمام منزلكِ، وأظلُ هناك تحت نافذتا
وحيدًا أسامرُ قلبي وطيفُكِ الذي ينظرُ لي من خلفِ زجاجها.. وكم رغب
بأن أرميها بحجارةٍ توقظكِ من سُباتكِ، أو أن أتسلق لها كلصٍ سيسر
لؤلؤةً من محارتها..

ما مللتُكِ يومًا، وما نسيتُكِ ساعةً.. أنتِ معي في كلِ الأشياءِ، أ
بقربي أراكِ تسكبين الشاي لي، تصففين ملابسي، ترتبين مفارشي
تشاركيني السفر، وتحتلين وجه البشر..

أذكرُكِ في كلِ ليلةٍ ماطرة.. يا تُرى أتحبين المطر؟ أترقصين على إيقاعِ هطولهِ، أم تخافين من رعودهِ ... أذكرُكِ في كلِ صباح.. يا تُرى ألا زلتِ نائمةً؟ أكان نومكِ طويلًا أم قاطعه صوتُ العصافيرِ وشعا الشمسِ؟.. أذكرُكِ في كلِ مساءٍ.. يا تُرى من سيحظى برؤيتكِ هذ الليلة؟ من سيرى قمر السماءِ جالسًا على الكنبة؟..

أعترفُ لكِ بأني أحضن طيفكِ في كلِ ليلةٍ.. أراهُ متمددًا عل فراشي، يبتسمُ ويغمزُ لي.. يُحدّثُني عنكِ ويخبرُني كم تشتاقين لي. وحدهُ من يفهمُني ويعلمُ سر غيابي.. يواسيني حينما أبكي.. يشتمُني حينما أصدُ عنه.. ويهربُ كلما حاولت ضمهُ ويصرخُ وهو هاربٌ مني « ا تضمّني.. أنا طيفٌ.. أنا رسولٌ.. فاذهب واحضن من أرسلني لكَ»..

أقفُ على عتبة الجنونِ كلما ذكرُتكِ.. فيتشاجرُ قلبي وعقلي يتبادلانِ الشتائم ويقذفانِ بعضهما البعض.. يختلفانِ في الآراء.. فالأو يريدُكِ ولا يبالي بأي عقباتٍ قد تفرّقنا وتكسرنا لنصفين.. والثاني يريد ويحسبُ ألف حسابٍ لرغبتهِ..

قرأتُ رسالتكِ..

وبحزنٍ أرسلتُها إلى سلةِ المهملاتِ..

* * *

في بداية كل قصة حب، يرى كل عاشقٍ حبيبته بصورةٍ كاملةٍ لا نقص فيها. يرفعها إلى أقصى درجاتِ الكمالِ والجمالِ. يوهمها أنه خلقت من نورٍ كما تخلقُ الملائكةُ، وأن الطبيعة خلقت من جمالها.

يهيمُ العاشقُ بمعشوقتهِ ويبحرُ بها في بحر الحب حتى تنام مطمئن أنهُ لن ولن يرى غيرها أبدًا..

ولكن سرعان ما تزول تلك الغشاوة مع أولِ مشكلةٍ بينهما، أو مع أول فتاةٍ أخرى تداعبُ وجدانهُ..

هكذا كنتُ أنا، كأي عاشقٍ أخر، لا شيء يميّزني عن غيري، أحب بصدقٍ ولكن صدقي يكذبُ أحيانًا..

وكم كنتُ صادقًا حينما غنّت ديالا فشعرتُ بصوتها يصرخُ داخلي يُقظنُي من غفلتي، ويحركُ قلبي من جديدٍ، ويركلُ حنين المسكينة إلى آخر الأزقةِ في قلبي، ويجعلُ لها شريكةً أخرى في صدري..

«بيني وبينك يا حلو شو صار في حكايات

ما في كلام يساعها منقولها لفتات

كنا نراسل بالومى ونقول شرح يطول

ولما اجتمعنا لحالنا نسينا شو بدنا نقول»

صوتُها العذب أربكني وعصف بشراعِ زورقي، جعلني أتجهُ نحو الشمالِ، نحوها بلا إرادةٍ وكأنني أفعى ترقصُ على نغمِ مزمارٍ ناسد هيبتها غير مبالية بمن يضحكُ على رقصها وسذاجتها..

علّمتني ديالا الكثير والكثير .. علمتني أنني رجلٌ، ولأنني رجلٌ فإن الخيانة ستلتصقُ بي بشكلٍ أو بأخر.. علّمتني أن الرجال لعبةٌ في أيادي الفاتناتِ، ومهما كان قويًا وصادقًا حبهم لمحبوباتهم فإنهم لا يخلون من نقاط الضعفِ.. علّمتني أن الحب ضيفٌ لطيفٌ يستقرُ في أجسادنا متى ما أكرمناهُ، ويرحلُ متى ما بدأنا نشتكي منه.. علّمتني أن الحب دورةٌ من دورات الطبيعةِ فيه فصولٌ أربعة.. فصل العشق الممطر، وفصلُ العناقِ المزهر، وفصلُ الحنين البارد وفصل شتاءِ النسيان القارس.. وعلّمتني معنى أن أنسى حبًا بحبٍ أخر.. أن أستبدل الحب الذي يستعصي عليَّ نيلهُ بجسدٍ آخر يغدقُني بالحنان والاهتمام، لا يريدُ شيئًا مني غير قبلةٍ في الصباحِ وحضن في الليلِ، لا يربطُني به أمنياتٍ ووعودٍ أخاف منها وأخاف عليها غدر الزمان والقدرِ.. وعلّمتني أنها ومهما كانت قريبةً مني إلا أن أنها مرحلةُ نقاهةٍ واستجمام وستنتهي..

ونسيتُ أن في الحب لا توجدُ مرحلةُ نقاهةٍ واستجمام.. وإن وجدت فيها في الغالب أقربُ لمعنى الخيانة...

صارحتني مرةً بقولها أنها امرأةٌ نصفُ متزوجة.. سألتُها وكيف يحدث هذا؟ أجابتني: يحدث أن يكون هناك امرأةٌ نصُ متزوجة عندما تتزوجُ نصف زوج.. زوجٌ لا يريد منها إلا جسدها، يريدهُ أن يكون متأهبًا له متى ما اعتلت شهوتهُ بعد منتصف الليل، يريدها أن تسقيه

من مائها ومن خمرها ويظنُ أنهُ يكافئها بأمواله وهداياه، وينسى أن أجمل هديةٍ قد تقدم للمرأةِ هي الاهتمام..

نصبتُ ظهري على السرير بعدما كنتُ مستلقيًا وسألتُها..

- زواجٌ مسيار؟..

- بل هو أشر من المسيار.. زواجٌ ذو منفعةٍ متبادلة.. أنا أداعبُ ثغره متى ما جفَّ، وهو يأمنُ لي عيشةً طيبة..

- ولما تقبلين على نفسكِ هذهِ الإهانةِ المغلفة بشرائط حمراء؟

- «إلي أمر منه» يا حبيبي...

خجلتُ من اللقب الذي أهدتني إياه على غفلةٍ مني، وافتعلتُ الصمت ورحتُ أطالبُها بتوضيحٍ لقصتها، فما أشعرُ بهِ الآن تجاهها هو نبضٌ يحتملُ أن يشاركهُ أحد بها..

حاولتُ أن أجعلها تتحدث، وحاولت أن تمتنع عن الحديث.. أخبرتُها أن لا شيء في علاقتنا سيتغير مهما كان سيئًا ماضيها، وأخبرتني أن ماضيها نستهُ في صندوقٍ أسود ولا تعلم أين وضعت مفتاحه..

ولكنها سرعان ما وجدت مفتاح ذلك الصندوق عندما قلتُ لها.. «هيّا حبيبتي.. أخبريني»..

«حبيبي» و«حبيبتي» كلمتان سحريتانِ تفتحان لك أبواب أي مغارةٍ تقفلُ أبوابها أمامك.. كلمتانِ ذات مفعولٍ يشبهُ عبارة «افتح يا سمسم!..».

باحت ديالا بسرها، بتفاصيل ليلة هروبها من منزلها وأهلها وأصدقائها ووطنها.. كيف تسللت من منزلها، كيف ودّعت سريرها، كيف كان قلبها قاسيًا حينما كتبت سطرًا واحدًا في رسالتها، رسالة خالية من عبارات الوداعِ.. وكيف كانت تنظر لجبال وطنها الخضراء من نافذة الطائرة، وكم من دمعةٍ حرقت خدها الأبيض كالنورِ في تلك اللحظة الحزينة.. قالت إنها أرادت الهرب، أرادت أن تعيش كما تعيش هي الآن، وظنت أنها لن تندم أبدًا، وحسبت أنها ستكون سعيدةً بهذه الغربة وهذه المسافة التي تبعدها عن فقر أهلها.. ولكن هناك نبضًا ما في قلبها لا زال يتحرك كلما رأت في التلفاز مشاهد من وطنها، وكلما تذكرت وجه أمها وملابس أبيها المتسخة وصورة أخيها النائمة في محفظتها.. ورغم كل ما حدث، إلا أنها تعترف أنها لم تكره هذا الرجل الذي هربت معه، فقد أغدقها بأموالهِ ومهّد طريق علمٍ تعلم أنها لن تجده في بلدها مهما صبرت وتعبت.. قضت حياتها في ترفٍ لم تعرفه من قبل، تتنقل بين القارات كطيرٍ حرٍ لا تطوّقهُ أية حدودٍ، وتشتّت وحدتها بالانغماس في أوراق الطب.. كانت لا تكتفي بالنومِ على وسائدٍ من حرير، بل أرادت أن تصنع فرقًا واضحًا في حياتها لا يجعلها تندم على الهروب من عشها.. قضت خمس عشر سنة تتعلم وتدرسُ حتى ارتدت عباءة التخرج السوداء.. ارتدتها ولكن لم يكن هناك أحدٌ يصفقُ لها حينما اعتلت منصة التتويج، ولم يرها أحدًا عليها أبدًا..



لم تكن هي أولى زوجاتِ بعلِها، ولم تكن الأخيرة.. هي كانت الزوجة الحرة الطليقة، لا حقوق زوجيةٍ بينهُما إلا في أمرين.. النفقة التي تضمن بقائها في قربهِ.. والمعاشرةُ التي تجبُ أن تكون بموعدٍ مسبقٍ. لا يعيشان مع بعضهما البعض، فهو يعيشُ في قصرٍ كبيرٍ مع زوجة أخرى لا يسخرُ منه الناس حينما يرونه معها ويكون ذا هوى أمامهم.. وهي تعيشُ في شقةٍ صغيرةٍ أجملُ ما فيها غرفة نومها التي اهتم بتزيينها زوجها أكثر من أي غرفةٍ أخرى في تلك الشقة..

كانت ديالا تبكي بحرقةٍ وهي تبوح بقصتها.. شعرتُ وقتها ببرودة تأكلُ أصابعي، وبالكلامِ يموت على ثغري قبل أن يخرج مواسيًا لها.. دموعها جعلت صوتها دافئًا نقيًا يتحدثُ بصدقٍ، فالبكاء والحزن لا ينغمسان في الكذب..

* * *

(15)

أحببتُ ديالا، وأحببت وجودها..

اقتربنا من بعضنا كثيرًا .. أصبحنا نتبادلُ الرسائل في الصباح ونثملُ بالحكي في المساء .. نتحدثُ طويلًا ولا شيء يقاطعُنا .. إلا أ الساعة الثانية عشر في منتصف الليل كانت تألم قلبي أحيانًا .. ففيها تختفي ديالا وكأنها سندريلا ومنتصف الليل عدوها .. لا تقول إلى أين ستذهب ومتى ستعود، وفي كلِ مرةٍ تحاول البحث عن عذرٍ أخر غير

إرهاق العمل .. ولكني كنتُ أعلم أنها تذهب له .. أو يأتي لها هو.. لا يهم أيهما يقترب من الآخر ما دام أنهما سيجتمعان وسأظلُ هنا وحدي أفكرُ بما سيفعلانهِ حتى ينتكش شعرُ رأسي غيرةً..

بدأت الغيرة تظهرُ على نبرةِ صوتي وعتابي لها على تركها لي وحيدًا تحت نور القمر.. تضحكُ على غيرتي تجاهها وعلى هذا الانجذاب المدهش نحوها.. وتصبر قلبي بقولها «لا تحزن يا حبيبي.. سأعوّضك عن هذا الغياب بعناقٍ يطوّقُكَ حتى تنام»..

وأوفت ديالا بوعدها حينما اختارت بيروت مكانًا لعناقنا.. تواعدنا على الالتقاء هناك، تواعدنا على أن نهرب معًا وكأنها لا تعرف إلا طريق الهروب لتنجو من حزنِ هذه الحياة..

التقينا في مطارِ الرحيل كالغرباء، وما إن وصلنا إلى بوابة الطائرة حتى تشابكت أيدينا وصارت أكتافنا وسائدًا ونظراتُنا غوايةً..

وصلنا إلى بيروت ومكثنا في شقةٍ صغيرةٍ في أحد الفنادق المطلة على زرقةِ مياه البحر حيث تحلّقُ النوارسُ قريبًا من شرفتها.. بيروت المدينة الفاتنة احتضنتا واحتضنت جنوننا وأشعلتنا كعودين كبريتٍ.. لا بيروت ولا بحرُها ولا نوارسُها منعوني من قضمِ شفاه ديالا.. ولم تمانع ديالا حتى!

تلطخنا بطين الرذيلة وخضنا معًا معارك شرسةً في ميدان السرير.. كُنا مراهقين في حبنا، نسعى لما يروي عطش أجسادنا دون أن نبالي

بالعواقبِ الوخيمةِ التي قد يحملُها لنا القدر.. كنا مراهقين فعلًا في هذ
الحب.. وبعد ست ليالي فقط انطفأت شموع الشهوةِ التي كانت تحرقُ
صدورنا بشمعها وانقلب حالُنا إلى فتورٍ وبرودٍ جافٍ يمزقُ شفاهن
بالصمتِ..

كان حبنا أضحوكةً، كان عبثًا وشبقًا ورعونةً.. ولأن ما يأتي بسهولة
يرحلُ بسهولةٍ.. رحلتُ أنا عن شفاهِ ديالا بعد القبلةِ العاشرةِ.. بعد المئة!

كان رحيلي متوقعًا، لم تضجر هي منه كثيرًا، فقط أربكها سرعةُ
حلولهِ وطريقةُ وداعنا.. لململتُ ملابسي المتكدسة والمتشابكةُ بين ملابسها
رصصتُها بإهمالٍ في حقيبتي وكأنني أعاقبُها على لهوها وعلى رائحة
عطرِ ديالا الذي يعانقُها..

ارتديتُ معطفي وحملتُ حقيبتي وغادرتُ بيروت بينما كانت ديا
تستحم وفي استحمامها دموعُ قهرٍ على حالها اختفت مع قطراتِ الما
التي تطهّرُ جسدها من ذنبي..

لم نتعانق لمرةٍ أخيرة، ولم نصبّر أنفسنا بكلماتِ الوداعِ.. كان حبُنا
عطلة وانتهت بعد مللٍ وأسف..

(16)

جاءت تَحملُ الورد وتترنح؛

وردٌ يحملُ وردًا..

تتباهى بين الإناثِ وتتغنج؛

أُنثى أجملُ من أيِّ أُنثى..

تَغمِزُ بجفنِ عينِها وتتفنّن؛

بإسقاط ذكورٍ رجلًا رجلا..

تنتقِمُ بجمالِ خدِها وتثأر؛

من رجُلٍ أهرقها هجرًا وبُعدًا

غاويةُ الحسنِ والجمالِ تتعذب؛

من دقاتِ قلبٍ تدقُّ ألمًا؛

وتذرفُ الدموع دمًا ونبضًا..

مُترفةُ النعومةِ وأميرةُ الطفولةِ تتحسر

على قلبٍ يُحبهُ حُبًا جمًا..

على خائنٍ رحل وأدبر..

* * *

عدتُ إلى الرياض منكسرًا وخائبًا، عدتُ بعد صحوتي من سكر الحب المزيفِ.. عدتُ بزيفٍ حادٍ في ذاكرتي يجعلُ رأسي كرةً ثقب الحملِ على جسدي..

الخيانة صفةٌ لا تغادر كل عاشقٍ إلا من رحم الله.. ولم يرحمني الله ويجنّبني إياها..

الخيانةُ كالدماءِ الملوثةِ، تتغلغلُ في أجسادنا، تغيّر من تركيبتنا وندفعُ ثمنها بصراخِ الضميرِ في داخلنا..

ظننتُ أنني سأنسى حنين مع أولِ قبلةٍ تجمعُني بديالا، ظننتُ أ الحب يُنسى بالقبلات وبعرقِ الأجساد.. ظننتُ أنها سترحلُ من قلب ولن يتبقى أثرٌ لها في شوارعهِ.. ظننتُ وظننتُ وظننت.. حتى خاب ظن حينما صرخ قلبي باسم حنين، معلنًا عن اشتياقهِ وحسرتهِ دونها..

وصلت إلى منزلي في الرياض منهكًا من صراخِ قلبي ومن صداعِ ذاكرتي، ألقيتُ السلام وألفَ كذبةٍ على عائلتي عندما سألوا بما صنع هناك في بيروت، ثم استأذنتهم بالصعودِ لغرفتي لأريح جسدي المتضرر من قُبلاتِ ديالا..

وقبل أن تنام عيني كتبتُ رسالةً لحنين..

«يا من اشتقتُ لها كثيرًا.. يا من يفتقدُها قلبي كثيرًا.. لكِ أسفي ي حنيني على كلِ ليالي الغيابِ، على ندائكِ الذي لم تسمعهُ أذناي و قلبي...

سامحيني.. سامحيني أيتُها الطيبةُ واقتربي فإن في صدري جرحًا لن يبرى إلا بقربكِ.. وعلى خدي دمعٌ لن يجف إلا بمنديلكِ..

أعلم أنني آلمتُكِ بما يكفي لتعودي، وأعلمُ أنني أبكيتُكِ بما يكف

لتشتاقي لي.. وأعلم أنكِ لا تعلمين عن سببِ هجراني وصدّي المميت.
ولكن الدنيا يا دنياي تآمرت علينا ولم تشأ أن تجمع شملنا..
أيتها البريئةُ كطفلةٍ عمرهُا دقيقة.. لا تبكي.. لا تحزني.. أنا هنا الآن
أنتظرُكِ.. وسأنتظرُكِ إلى أن أنام وحيدًا في غرفةٍ صغيرةٍ في باط
الأرضِ..
أحبكِّ..
هتان».
ثم راحت عيناي في سُباتٍ كم تمنيتُ ألا أفيق بعدهُ..

* * *

أنحنُ من نجني على أنفسنا بالشتاتِ ثم نلقي باللومِ على غيرنا في
محاولةٍ لتخفيفِ الألمِ على قلوبنا؟ أنحنُ من نهلكُ أنفسنا بالحزنِ والبك
ثم نقولُ أنه لولا فلانٍ لما حزنّا ولا بكينا؟ أنحنُ من نرهقُ قلوبنا بالد
ونجعلهُا تتكيفُ على صباحاتهِ ولياليهِ ثم نهلعُ ونضجرُ من كلِ صبا
ومساءٍ لا نرى فيهِ من نحب؟ أنحنُ العشاقُ من نخون؟ أم أن هنا
أشخاصًا آخرين يحرّكون أجسادنا وقلوبنا في دقائقِ الخيانة؟ كيف
للعاشقِ أن يخون ثم يعود طاهرًا؟ كيف للعاشقِ أن يحب.. ولا يخون؟
قساةٌ نحن معشر الرجال.. نقسو على أرواحنا ونعلّقُ قلوبنا على
حبالٍ كثيرة وكأننا نعدمُها مرات عديدة.. قساةٌ لا نرحمُ صدورنا ونحميها
من كيٍّ جمرِ الفراقِ.. نحبُ ونعشقُ وما أن يبدو هذا الحب صعبًا حت

نغيّر اتجاهاتِ بوصلةٍ الحبِ لحبٍ أخر أسهل..

نسيتُ نفسي.. نسيتُ إلى أي القلوبِ أنا أنتمي عندما رحتُ أعبر ف
واحاتِ النساءِ وآكلُ من ثمراتِ نخلاتهنّ وأشربُ من مياهِ شفاف
متناسيًا أنني عابرٌ ومهما طالت المسافاتُ بيني وبين وطني سأعود ل
يومًا غيرَ مبالٍ بما يبعدُني عنه..

ونسيتُ أنكِ وطني يا حنين.. أنكِ انتمائي والأرضُ التي تتفتحُ ع
تربتها أزهاري بطهرٍ، وأنكِ ومهما ابتعدتُ عنكِ ستبقين دائمًا في قلبي..

ولكنني منذُ أن خلقتُ وأنا آتي متأخرًا جدًا.. صبر والديَّ سبعة سني
لآتي.. وانتظروا تسعة أشهرٍ لأخرج من بطنِ أمي، ولو أنها لم تسأم من
حملي لبقيتُ هناكَ لتسعةِ أشهرٍ أخرى.. وكنتُ الأخير في دفعتي حين
أنهيتُ المرحلة الثانوية، وفهمتُ متأخرًا أنّ لا شيء يبقى للدوام.. وكنت
أيضًا الأخير الذي علم بموعدِ زواجُكِ!

قالتها جدتي وهي تخبرُني عما حدث في غيابي.. قالتها وهي تطيرُ
في سماءِ الفرحِ.. «أخيرًا.. أخيرًا يا هتان، جاء النصيبُ المنتظر لابنة
عمكَ.. حنين!».. قالتها وهي تبشّرُني بموعدِ هلاكي.. قالتها وهي تترقب
إشراقة سِني من وراء شفاهي.. قالتها ولم تدري أنها في تلك اللحظةِ
قتلت ابنها ببشارةٍ مُرَّة..

هكذا إذن.. هكذا أعلنتِ الرحيل وطويتي صحف الحبِ كلها.. هكذ
اخترتي طريقة ردِّ ثأركِ من غيابي وردِّ دينِ حبُّكِ من وجداني..

عيناي التي دهشتا من لونِ بؤرتي عينيكِ لم تستطيعا أن تصدّق هذا القول.. لم تبكيا ولم تذرفا دموعًا.. ولكنها كادتا تخرجان من مكانهما من شدّةِ دهشتهما!

ويداي التي تحسست خديكِ وعرفتا معنى كيف هو ملمسُ الحر صارتا جافةً خطوطها وتساقطت أظافرُها كأوراقِ الخريفِ متحسرةً على رحيلكِ..

صارت كل ذكرى جمعتني بكِ تعصفُ كالريحِ على مركبِ فكري وكأنها لحظةُ الموتِ أسترجعُ فيها أجمل لحظاتِ حياتي، أتنفسُ ببط الهواءُ بارد في صدري.. أطرافي لا تتحرك، شللُ الرحيلِ أصابني..

«سترحلين هكذا؟ صبرًا أيتُها الأنثى الماكرة.. صبرًا أيتُها الأنثى الحزينة.. لا ترحلي عني.. لا تتركيني هنا وحدي.. وربُ الحُبِ والحز والبكاءِ، وربي وربّكِ لا حياة لي دونكِ.. أخطأتُ أنا.. وعقابُكِ أقسى م خطئي.. ستذهبين هكذا؟ وتظنين أنيَّ سأدعُكِ تذهبين هكذا؟ أيتُها الشقيةُ لا تشقيني ولا تدمريني.. أنا الذي أعود لسنِ الطفولةِ بين ذراعيكِ، كيف تقدرين على هجرانِ طفلكِ؟! أنا الذي أقولُ كلامًا لا يقوى على نطقهِ ثغرُكِ، كيف تقدرين على نسيانِ صوتكِ؟!

آهٍ يا حنين.. آهٍ يا حبيبتي..

أتقتليني بصكٍ شرعيٍّ يبيح قلبك لرجلٍ غيري على سنّةِ الله ورسولهِ أتقتليني باسم الدين وتحرمين حبُي لكِ وترحلين للطهارةِ وأبقى أنا هنا

ألطّخُ وجهي بالطين ألًما على رحليكِ؟ أخبريني ماذا عساي أن أفعل
لتعودي لرشدكِ.. أخبريني ماذا عساي أن أفعل لتعودي عن قرارك
وتركضين باكيةً لصدري.. أي قصائدُ الرجاء ستجعلُكِ تعودين لي.. أي
كلماتِ الحبِ وألحانُ الحزنِ أعزفُها لتعودي..

أرجوكِ عودي.. أنا في حاجةٍ كبيرةٍ إليكِ.. والاحتياجُ
يا محبوبتي ذلٌّ..

عاجزٌ أنا عن كتابةِ الحزنِ الذي يحتلُ عينيّ وصدري.. عاجزٌ أنا عن
تصديق كذبة رحيلكِ.. عاجزٌ عن كلِ شأنٍ أخر غيرُ شأنُكِ.. أهناك شيء
أقبحُ من العجزِ؟

يا من أبتدأ عمري معها.. يا من أنجبتني من رحمِ عينيها.. رفقًا
بصاحبكِ.. رفقًا بعزيزِ قومٍ.. ذلّ!

أقف الآن على حدودكِ وحيدًا.. أرجوكِ افتحي بوابة قلبكِ ودعيني
أعودُ لوطني وعرشي الذي سيسلبُ برضاكِ مني..

هتان..»

وانتظرتُ جوابًا منكِ، انتظرتهُ بشغفٍ مثلما انتظرتُ جواب الحبِ منكِ
في أول ليلةٍ جمعتنا على مائدةِ العشقِ.. كنتُ مشتتًا لا أدري ماذا أفعل
بحالي.. أأبكيكِ أم أنتظرُ عل الانتظار يقضى برجوعكِ.. لا ليس رجوعًا..
أنتِ لم تغادري قلبي للحظةٍ لترجعي.. بل هو وصلٌ يحيي قلبي الواقف
على هاويةِ اللاشعور..

* * *

(17)

يا حبيبتي..

في مساءٍ مُخملي

ستكونيَن أنتِ أجمل أقمار السماءِ

ستكونيَن عروسةً

يحضُنها الفستانُ الأبيضُ ويقبّلُ يديها الياسمين..

ستكونيَن الوردةَ البيضاء التي

يتمايلُ بين أوراقها الغنجُ والدلعُ

ستكونيَن وردةً لطالما جذبني ريحانُها

ولطالما تمنيتُ استنشاق عِطرها

* * *

في ذلك المساء يا جميلة

ستغارُ منكِ قبيلة!

كيف أخذتي جمال نسائها العتيقِ البدوي؟

كيف فتنتي رِجالها البواسلَ الشُجعانَ بأهداب عينيكِ؟

* * *

في ذلك المساءِ يا رقيقة

سينتثرُ الوردُ حولكِ

وستتعالى الدعواتُ لكِ

سيغنّي باسمكِ

وسترقصُ الفتياتُ فرحًا بكِ

* * *

في ذلك المساءِ يا شهية

سيخجلانِ خداكِ كثيرًا

خداكِ اللذانِ تمنيتُ تقبيلهما كثيرًا

وسيبتسمُ ثغرُكِ كثيرًا

ثغرُكِ الذي تمنيتُ تذوقَهُ كثيرًا

* * *

في ذلك المساءِ يا لذيذة

ستمشين على خجلٍ

خطوةٌ تلوى الخطوة

وعلى مسرحٍ مملوءٍ بالوردِ

ستجلسين مع رجلٍ..... غيري!

* * *

في ذلك المساء يا حبيبتي

رجلٌ سعيدٌ موفقٌ محظوظٌ

أكرههُ أنا كثيرًا كثيرًا

رجلٌ غدر بي..

رجلٌ تغاضى عن كلِّ النساءِ

واختاركِ أنتِ يا كل نِسائي

رجلٌ أخذكِ مني

وتركني وحيدًا دونكِ

* * *

في ذلك المساء يا ملكتي

سيمْلُكُكِ غيري

وسينفطرُ قلبي

وسأنقسمُ لنصفين

نصفٌ سعيدٌ جدًا لكِ

ونصفٌ حزينٌ جدًا دونكِ

نصفٌ يتلو الدعواتِ لعينيكِ

ونصفٌ يتلو اللعناتِ على من أخذكِ مني

وما بين انقسامي ونِصفيّ

سأموت أنا، سأموت قهرًا أنا

وفي موتي

حبٌ خذل منكِ يا... محبوبتي!

يحزنُني أني أحاول الآن كتابة نهايةٍ تليقُ بكِ.. يحزنني أني أكتب نهاية قصةِ عشقنا العذبة وأني بعدما أنتهي من كتابتها سأعودُ لأكتبكِ مجددًا فمنذُ أن رحلتِ وأنا لا أعرفُ غير الكتابة طريقًا أستقلهُ لأهوّن على روحي من وطأةِ الحزنِ..

هل هذهِ النهاية التي كنا نطمح لها؟ نهاية لا تجمعنا في بيتٍ صغير ومع أطفالٍ ينادون علينا بأمي وأبي؟ نهاية لا تمطرُ فيها السماء لتختبئي تحت مظلتي.. نهاية لا برد فيها لتقتربي وتلتصقي بي، أنا

معطفكِ الحزين.. نهاية تجعلني أتمنى لو أني خلقتُ جمادًا لا يعرف
معنى المشاعر الحزينة المتراكمةِ في صوتي ولا يأبه بتقلبات الزمن، يظلُ
واقفًا صامدًا أمام الرياح حتى وإن أكلت أجزاءهُ...

النسيان، لصٌ ماكرٌ في اختيارِ ضحاياه، لا يسرقُ منك مالا تري
أن يرحل، ويختار تلك الذكرى التي تريدُها أن تبقى.. يسرقُ لحظات
الفرح منكَ ويوهمك أن لم تذق حلوى السعادةِ طوال أيام حياتك
ويتجاهلُ أطياف الحزنِ التي ترهقُكَ بمشاكساتها وبقفزها أمامك..

أدهشتني قسوتك التي لم أعهدها منكِ من قبل، أدهشني أفلاتُك
المفاجئ لحبل الحبِ بيننا، ذاك الذي شددتهُ كثيرًا بالرجاءِ وبالندمِ على
كلِ ليالي الغيابِ حتى أمسكتُ طرفهُ الأخر الذي كان خاليًا منكِ..

تكبرُ في صدري صحراء غيابكِ وتمتدُ من يساري إلى يميني بلا
غيومٍ تبشّرُ بهطولكِ.. تبشّرُ بعودتكِ وحتى وإن طار انتظاري لمطركِ..

قرارُ رحيلكِ كان ظالمًا وقاسيًا، قرارٌ لا استئناف فيهِ.. وبيدكِ اعتمد
ورقةَ ضياعي بأربعةٍ شهودٍ يؤكدون أنكِ أنتِ يا محبوبتي أصبحتِ حلا
على غيري وحرامًا على الحبِ الذي أكنُّه لكِ في فؤادي..

إنني مريضٌ بكِ.. مريضٌ يدركُ أن الشفاء منكِ صعبٌ جدًا، بل
مستحيلٌ.. فما أنجَبَتْهُ سنين بعدُكِ من تعلّقٍ بالماضي يجعلُ هذا القل
يدرك أن دواءهُ هو عودتُك والتي هي أيضًا أصبحت مستحيلةً.. فكيف
تعودين وأنتِ الآن أمٌ أرضعت طفلين، وأنا أبٌ أنجب حنينًا!

هكذا هي دنيانا يا حنيني، لم تعطنا ما نريد، ولم تحاول كسب ودنا بلقاءٍ أخر غير ذلك الذي جمعني في ليلةِ زفافكِ.. في ليلةِ اعتكافي علي رصيفِ مغادرتي النهائيةِ من حياتكِ.. هل تذكرين ما حدث تلك الليلة؟.. كُنتِ تمشين متأبطةً ذراع ذلك الأبكم.. فرحةً بهِ وكأنهُ ذاك الفارسُ الذ حلمتِ بهِ كثيرًا.. وكنتُ أنا أتأملُ مشهد ضياعي من على بعدِ مسا عشرةِ أقدامٍ ومئةِ دمعةٍ وألفِ آهٍ.. ماذا لو أني اقتربتُ منكما؟ ماذا ل أني هنأتُكما بهذا المجدِ وصافحتُكِ للمرةِ الأخيرةِ.. هل سأعود ويدي في مكانها؟.. هل سيعودُ جسدي وروحي لا زالت محبوسةً بهِ؟.. ها أنا أنظرُ إليك من بعيدٍ، أراكِ تجرّين وراءكِ فستانكِ الأبيض، وأشعرُ بأنكِ تجرّ صدري العاري على ترابِ القهرِ.. ولحقتُ بكُما إلى هناك، إلى ذل المكان الذي سيعلنُ رسميًا بأنكما زوجان.. وظللتُ هناك وحدي في عتم الليلِ أستمعُ لشيطاني الذي يسترقُ النظر لنافذتكِ فيعودُ ويخبرُني أ ذاك الأبكم المحظوظ طمس نقوش شفاهيّ على رقبتكِ وبدّلها بألوا ممزوجةٍ بالأحمرِ والزهري..

هكذا هو قدرنا، أن أحبّكِ ثم أراكِ ترحلين أمامي بالفستانِ الأبيض الذي ارتديتهِ لرجلٍ آخر غيري.. رحلتِ وظللتُ أنا هنا وحدي أردمُ حفر حبي لكِ التي تتسعُ كلما أليتُ فيها ذكراكِ وتلتهمني أنا الذي لا يعرف كيف أنساكِ..

أربعُ سنينٍ من الفراقِ ولا أزال أذكرُكِ.. تبًا لذاكرتي ما أحقرها، ت

لها ما تزال تحتفظُ بكِ على جدرانها وتقيكِ من أعاصيرِ النسيان
تتمسكُ بكِ وكأنكِ أجملُ لحظاتها وآخرُ دقائقُ سعادتها..

أربعُ سنينٍ من الفراقِ، لم أمت فيها، بل عشتُ بقلبٍ ميتٍ وخائبٍ
معاني الحب.. وأنتِ سارت حياتُكِ على نحوٍ جيدٍ، فقد أخبروني أنا
أنجبتِ وأن طفلتيكِ ولدتا بصوتكِ الضائع، وأنهما ألغتا الهدوء الذ
يسكنُ زوايا منزلكِ بصوتيهما العذبين.. أخبروني أني أُهلِكُ نفس
بالوقوف على أطلالكِ، ويجب عليَّ أن أنساكِ وأن أطرق أبواب الفرح
دونكِ وأنكِ لم تستحقي حبي، ولو أنكِ كنتِ أهلًا لهُ لما يأستي وقط
صلة الحبِ بيني وبينكِ.. أخبروني أنني سأموت وحيدًا إن لم أنسكِ وأ
حياتي فانيةٌ ولا يجدر بها أن تنقضي وأنا متمسكٌ بزمامِ الماضي.. ول
يعلموا أنكِ فتاةٌ لا يمكن أن تُنسى.. وأن ما كان بيننا أطهرُ من أن
يُنسى..

آهٍ لو أنكِ تعودين وتعيدين لي سنيني الضائعةُ دونكِ.. آهٍ لو أنن
أمتلكُ آلةِ الزمنِ فأعودُ بها كلما ضاقت السماءُ في عينيّ إلى لحظ
قبلتنا الأولى.. آهٍ لو أنني كنتُ أعلم الغيب لما أحببتُ ولما أبحرتُ في بح
العشقِ الغدار..

صدقيني يا حنيني، أتعبني الحنيُن إليكِ.. حاضرةٌ أنتِ ف
أحلامي.. أحلامي تلك التي صارت كوابيس حينما تأتين فيها فأصحو
ولا ألقاكِ في واقعي وأعلم أنكِ هناك نائمةٌ في حضنٍ آخر كان أجدر ب

مني.. منذُ أول أيامِ حُبنا وأنا أعلمُ جيدًا أنكِ نقطةُ التحولِ الت
انتظرتُها ثلاثين عامًا وأنكِ واحدتي وأن من بعدكِ إناثٌ لا يسمنَّ و
يغنين من جوع!

يشتدُ حزني كلما ذكرتُ أن مجتمعنا كلهُ وقف ضدنا صارخًا «لا
يليقُ برجلٍ سليمٍ أن يرتبط بأنثى ناقصة» وكأنهُ يضعُ لنا معاييرًا للحـ
لا يجدرُ أن نُخِلّ بها لننال تبريكاتهِ بهذا الحب.. يحزنني أن امرأةً مثلا
طاغية الجمال وحسنة الصفاتِ لا تملكُ فرصًا كثيرة لتحيا كما تريدُ وم
من تريدُ، وتجبرُ على أن تكون لمن هم على شاكِلتها.. أجرموا في حقنا
يا حبيبتي، أبعدونا عن بعضنا ببندِ «لا يصلحُ» أو «لا يليق» وتجاهلوا
أننا معًا نستطيعُ أن نتخطى عقبة الصوتِ لأكون لكِ صوتكِ وتكونين لـ
صمتي..

اشتقتُ لكِ.. أتعلمين؟ صهرني الحنيُن لكِ.. أتدركين؟

ماتت زهورُ مدينتي في يديَّ، بعدما جفت خطوطها من وصلكِ.
ذبلت حدائقُ الكلامِ في صدري وأصبح الصمتُ أجمل صفاتي، يظن
الناسُ حكمةً وهيبةً، وأعرفُ أنهُ حديثٌ طويلٌ لا يستحقُ أن يحكى إلا لكِ.

تثيرُ اشتهائي نجوم الليلِ للكتابةِ إليكِ، تسقطُ نجمةٌ من السماءِ لتني
لي سطور دفتري وكما بردت غادرتني وجاءت نجمةٌ أخرى تبتسمُ بخجل
وتجلسُ على كتفي فأغرقُ أنا بكلماتي وبهذياني.. وأدركتُ مع كلِ سـ
أكتبهُ لكِ، أنكِ المعادلةُ الأصعبُ في حياتي، أنكِ المرحلةُ الأجملُ ه

مراحلِ عمري، وأنكِ واحدتي.. واحدتي.. واحدتي!

ستبقى هذه الأوراقُ غيرُ مكتملةٍ، ينقصُها الجزء الأخر.. ينقصُه أوراقُكِ يا حنيني ... ولا أدري ماذا سيحلُ بهذه الأوراق.. أين سأخبئه ومتى سأظهرُها ومن سيقرأُها.. لا يهمّني مصير هذه الأوراق، ولكن إذ مر يومٌ ووصلت أوراقي ليديكِ، فأرجوكِ لا تقرأيها.. لا تقرأي حزني لكي لا تحزن عيناكِ..

وإني أحبُـــ....

(جاء صوت جرس الباب ليقتلع الحرف الأخير من كلمة الحب.. فتح هتان باب شقتهِ التي اتخذها ملجأً له عندما يكتبُ لحنين.. أو عندما يلتقي بفتاةٍ أخرى)!

فَـتَـحَ الباب.. وقال هتان:

- أهلا حبيبتي.. تأخرتِ هذه المرة.. يا ديالا!

* * *

انتهت

May 2013 16

محمد السالم

.Pola Muzyka 2